

عادل تيوذور خوري

الظاهرة الدينية

٤

الخلاص

مفهومها وبلدها

[www.christianlib.com](http://www.christianlib.com)

عادل تيوذور خوري

الظاهرة الدينية

٤

الخلاص

مفهومه وأبعاده





# فهي علوم الأديان

سلسلة يُشرف عليها  
عادل تيودور خوري  
والمطران كيرلس سليم بسترس

١١

عادل تيودور خوري:  
الظاهرة الدينية: ٤ - الخلاص: مفهومه وسبله  
المكتبة البولسية (جونية - لبنان) ٢٠٠٩، ٢٢٤ ص.

عادل تيودور مخوري

الظاهرة الدينية

٤

الخلاص

مفهوم ورسالة

المكتبة البولسية

جونية - لبنان

٢٠٠٩

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

© جميع الحقوق محفوظة للمكتبة البولسيّة

المكتبة البولسيّة: جونية - لبنان، ص. ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ - ٠٩

فاكس: ٦٤٣٨٨٦ - ٩ - (٠٠٩٦١)

(٠٠٩٦١) - ٩ - ٩١٨٤٤٧

## الفصل الأول

### اختبار الله والتماس الخلاص

نتعرّض في هذا الفصل للأسئلة التالية:

١. كيف يكشف الله عن ذاته؟ وبأيّ الوسائل يمكن البلوغ إلى اختبار الله؟
٢. على أيّ نوع من الاختبار عند الإنسان يتركز خصوصاً اختبار الله؟
- ومن أيّ اختبار بشريّ ينطلق البحث عن الله؟  
(أسس اختبار الله)
٣. سُبُل الخلاص.
٤. الدين.

### سُبُل اختبار الله

#### ١. الوحي العام

الوحي العامّ هو السبيل إلى معرفة وجود الله واستكشاف أفعاله. وهذا يحصل على وجهين:

#### (١) بواسطة الخليقة

الخليقة هي، حسب ما تثبته شهادة الإيمان، سبيل إلى معرفة الله يستطيع جميع الناس أن يسلكوه. وهذا نوع من الوحي الطبيعيّ. وقد

قال في ذلك كونفوشيوس الصيني إن ساكن السماء لا يتكلم، بل يكشف عن نفسه في مجرى الطبيعة (ورد في حديثه لونغ يو ١٧، ١٩). ومعرفة الله هذه يمكن اكتسابها في ضوء العقل الطبيعي. ولذلك فهي مبدئياً في متناول الجميع، إذ إنها ليست صادرة عن بادرة خاصة من قبل الله، فلا تكون إذن في بادئ الأمر حدثاً فريداً ولا اطلاعاً موجّهاً إلى أفراد. ومعرفة الله بواسطة الطبيعة تكشف قبل كل شيء عن وجود الله وأفعاله.

## (٢) عن طريق تفحص حياة الإنسان ومصيره

إن عمل الله يستشف أيضاً من مجرى حياة الإنسان، وفي ما يسمّى مصيره وما يدعى سعادة، وما يدعو إلى الفرح أو يسبّب الألم. فتدخل الله في حياة الشعوب ومصير الأمم والمجتمعات والأفراد، وتأثيره في مجرى التاريخ يكشفان للمتفكر المتأمل الفطن سلطة مشيئة الله، رب الحياة وسيّد التاريخ.

أمّا الذي ليس عنده قدر كافٍ من البصيرة والحكمة، فقد تخفى عليه أفعال الله هذه، ولو كانت أساساً قريبة المتناول لجميع الناس، كما تخفى على الذين اختاروا لأنفسهم التخلي عن استطلاع وجود الله وعمله في الحياة والتاريخ.

## ٢. الوحي الخاص

الوحي الخاص لا يبلغ إليه الناس كلّهم، ولا ينتج من أعمال



الذهن والعقل ومن شحذ البصيرة، بل يركز على موهبة خاصة ببعض الناس ترافقها بادرة خاصة من قبل الله، أو على بادرة من الله فقط. بهذا عيننا معرفة الله الروحانية الصوفية، من جهة، والوحي النبوي، من جهة أخرى. والكشف الصوفي موجه إلى حاجات الفرد الروحانية، فيما يراعي الوحي النبوي بالأحرى مصالح الجماعة، وقد يتسع مجاله ليشمل البشرية جمعاء.

### (١) الكشف الروحاني

إنَّ العرفان الروحيَّ يكونُ كشفًا باطنًا يتلقاه الإنسان ذو الموهبة الروحانية الرقيقة بواسطة صوت داخليٍّ أو رؤيا باطنة. وهذا الكشف يحمل في طياته تذوقًا لقرب الله واختبارًا لذاته الإلهية، لهما طابع غير معتاد عند عامة الناس. به تتوثق علاقة الإنسان الروحاني بالله، فيفتح أمامه مجال الشعور الأخاذ بحضور الله، واستجلاء إرادته القدوسة، واتباع وصاياه وآثاره، والبلوغ إلى رؤية جوهره حتى البلوغ إلى اختبار الاتحاد به. ويكون ذلك عن طريق التأمل والاستغراق العميق، أو عن طريق الحب الإلهي.

### (٢) الوحي بواسطة الرؤى والعرافة والكهانة

- إنَّ الرائي يتلقون الإلهام لمصلحة أشخاص آخرين أو جماعات أخرى. فالرائي له موهبة روحانية يقوم على أساسها كوسيط بين الناس المتلجئين إليه في حاجاتهم والعالم العلوي. فهو يستطيع الاتصال بعالم الآلهة أو الأرواح بسهولة أكبر مما يبلغ إليه سائر الناس، ويكتسب بذلك

معارف تخفى على عامة البشر. ولكنه لا يحتفظ بهذه المعارف لنفسه، بل يضعها في خدمة أناس آخرين. فيعلن على مسمع من يطرح عليه سؤالاً معيناً ما هي إرادة الله، ويكشف عن المصير الذي يحبّه المستقبل للأفراد أو للشعوب. فالبادرة أي السؤال عن إرادة الله والمصير والمستقبل تصدر إذن عن الإنسان. والجواب عن الأسئلة المطروحة يأتي من عند الآلهة. وعُرف الراؤون عند عدد من الشعوب القديمة مثل اليونانيين والرومان، والجرمانيين، والعبرانيين القدامى.

- وهنا يجب أن نُميّز بين الرّائين، من جهة، والعرّافين الكهّان، من جهة أخرى، الذين يكتسبون معرفتهم وإطلاعهم على المستقبل بواسطة أساليب العرافة السحرية. فبينما كان الراؤون مستقلين عن هيكل أو معبد معين، ينتقلون من موضع إلى آخر سائحين في الأقطار والمقاطعات، كان العرافون الكهّان يستعملون أدوات أو مواد لا علاقة لها في أكثر الأحيان بالغرض المنشود وبالجواب المنتظر. من هذه الأدوات أخشاب وكعاب وأغصان وسهام وآلات القرعة. ومنها التأمل في طيران الطيور والاستماع إلى أصواتها، ومنها استكشاف المستقبل أو الأمور الغامضة بفضل التأمل في أحشاء الحيوانات، لا سيما الكبد، ودم الذبائح من حيوانات أو بشر. ومنها التأمل في دوران النجوم، وتفسير الأحلام.

وكانت معابد العرافين والكهّان معروفة عند جميع القبائل القديمة تقريباً. وقد اشتهر فيها بنوع خاصّ معبد دلفي في اليونان. فأوضحت



العرافة في المعبد أو الهيكل فرعاً من فروع الخدمات العامة ومؤسسة في المجتمع.

وفي عديد من الأحوال كان من الأمور المعروفة المنتشرة أن يستعين العراف والكاهن لاكتساب معارفه العلوية بأنواع المخدرات. ولم يكن من النادر أن استُخدمت العرافة لإرضاء أغراض الناس، أكانت صالحة أم شاردة عن الأخلاق الحميدة أو شريرة.

### ٣. الوحي النبوي

الوحي النبوي أوسع من العرافة وكشف الرائيين، وهو يقوم على مستوى ديني أرفع. فالوحي النبوي يحتوي على ما يتعلق بالعقيدة الدينية والمثل الأخلاقية وأشكال العبادة الصافية. مثل هذا الوحي وهذه الرسالة لا تتوجه إلى فرد معين يحفظها لنفسه، بل هي تعني المجتمع، أو الشعب كله، وتخطب أحياناً البشرية جمعاء.

ومع أن الإلهام النبوي يبعث في وجدان النبي وقلبه عوارض مثيلة بعوارض الاختبار الروحاني الصوفي، إلا أن مضمون الإلهام يجب أن يشر به علناً. فالنبي يتكلم عن إيعاز من قبل الله فيبدأ كلامه بالعبارة الآتية: "هكذا يقول الرب". وهو يوجه كلام الله إلى شعب معين أو إلى البشر دون تمييز.

وأهمية الوحي النبوي لا تكمن خصوصاً في نوع العلاقة بين الله والنبي، بل في مضمون الرسالة التي يشر بها، إذ إنه تلقاها من الله، والله يأمره بتلاوتها على الناس وإبلاغ محتواها إليهم.

والظاهرة النبوية معروفة عند كثير من الشعوب، وأهم ما وصل منها إلينا ما جاء في الكتب المقدسة عند اليهودية والمسيحية والإسلام.

### أسس اختبار الله في كيان الإنسان

يمكن القول إجمالاً إن الاختبار الديني، أي اختبار حضور كائن متعال وعمله في نطاق حياة البشر، يركز على اختبار عدم الكفاءة البشرية والعجز. وبعبارة أخرى: إن اختبار تعلق الإنسان بكيان سام وحاجته إليه يقوم على اختبار الإنسان لحدوده الذي لا يستطيع تخطيها. ونطاق عدم الكفاءة عند الإنسان يمتد إلى مستويات عديدة متنوعة، تشمل في النهاية جميع أبعاد الكيان البشري ووجود الإنسان.

ويمكن تصنيف هذه الأبعاد وتكوين تسلسلها بأنواع مختلفة. وما يهمنا هنا هو إظهار بنية هذه الاختبارات، لا ترابطها المنطقي ولا أسبقية بعضها على بعض من الناحية العقلية ولا الإنسانية ولا التاريخية. وهذه المعطيات متخذة من تراث الأديان، لا من التفكير الفلسفي أو من اللاهوت المسيحي وحده.

#### ١. تحليل وجود الإنسان

##### (١) نطاق الوجود

إن الإنسان يشعر بعدم كفاءته وبحدوده، وبالتالي بعدم استقلاله، بل بتعلقه بكائن أسمى، بالنسبة إلى ذاته الشخصية ووجوده الخاص. فإنه لا

يستطيع بالاستناد إلى قدرته الخاصة أن يعلّل لماذا هو موجود، ولماذا هو كائن له ذاتٌ معيّنة، أي لماذا وُجد كإنسان. وهو يعجز عن أن يشرح لماذا العالم موجود ولماذا العالم حدث في شكل كونٍ منظم.

هذا هو اختبار عدم وجوب الوجود بالنسبة إلى الإنسان والعالم. فعلى أساس هذا السؤال وانطلاقاً من هذا الاختبار يقوم سؤال الدين عن مصدر الكون ومصدر الإنسان. وهنا في جواب الدين نصادف مفاهيم مثل الخلق، والأحوال الأصلية القديمة، ومكوّن العالم، ونظام الكون.

## (٢) نطاق المعرفة

يختبر الإنسان عجزه وحدوده في الإجابة عن السؤال عن معنى الوجود الإنساني، وعن معنى العالم ومعنى الحياة، وعن السؤال عن علاقة الله بالعالم وعلاقته بالإنسان في حياته الخاصة وفي المجتمع وفي التاريخ. انطلاقاً من هذا الاختبار ينشأ السؤال عن حدوث وحي إلهيٍّ ومحتوى هذا الوحي، وعن قيام تقليد دينيٍّ ومفعول هذا التراث.

## ٢. تنظيم الحياة

### (١) نطاق المسلك الأخلاقي

نطاق المسلك الأخلاقي مرتبط بنطاق المعرفة. وكذلك القول في السؤال عن صحّة القواعد الأخلاقية وإلزاميتها، وعن مبررات القوانين التي تعدّ تعبيراً عن المشيئة الإلهية. والشيء الأساسي في هذا هو اختبار



ارتباط الإنسان بكائن متعالٍ، هو المرجع الأخير والقاعدة المطلقة للخير والمسلوك الأخلاقيّ، وهو ضمان إلزاميّة القانون ومثبت فرائضه.

(٢) من هنا السؤال عن نظام الحياة، عن نظام يستطيع أن يُشبع شوق الإنسان إلى امتلاء الكيان وسعادة القلب، وأن يحقق المطالبة بالعدل والسلام. وهكذا فالله هو ضمان العدالة في المجتمع وهو يُثبت سلطة المراجع القضائيّة. وحيث تُحقق جهود الإنسان في تحقيق العدل، ينتصب الله ضماناً لإقامة العدالة الثابتة في الدار الآخرة.

### ٣. ضبط الحاضر: الحاجة إلى الخلاص

إنّ أهمّ نطاق الاختبار الدينيّ هو اختبار حاجة الإنسان إلى الخلاص، حاجة تنال جميع أبعاد حياته. وينشأ هذا الاختبار بدءاً من اختبار الأخطار المختلفة التي تحيق بحياته.

#### (١) مجالات حاجة الإنسان إلى الخلاص

##### - المجال الطبيعيّ الحيّاتيّ

فالإنسان منذ بدء حياته على هذه الأرض يولد في عالم يمكنه عادة من كسب معيشته، ولكنه لا يعطف في كلّ الأحوال على حياته. لذلك تجب حماية الحياة الناشئة والناضجة من شتى المخاطر.

وفي الحقبة القديمة من تاريخ البشريّة كان الناس لم يطلعوا بعد اطلاّعاً كافياً على تركيب الطبيعة ونواميس القوى العاملة فيها. فكانوا يعتبرون



العالم مجموعة قوى خفية تفوق قدرتهم البشرية وتعمل وفق إرادتها، دون أن يعرف الإنسان هل تريد له الخير أم تهدده بالوباء.

بالصعوبة التي يختبرها الإنسان في صيانة حياته، وكسب معيشتها، وحماية حياته من المرض والألم والأذى، وخصوصاً عدم استطاعته حماية هذه الحياة من الموت، تلك النهاية التي لا مرد لها، كل هذا كان يجابه الإنسان وي طرح عليه أسئلة صعبة الحل، تمس أهم مصالحه الحيوية.

انطلاقاً من هذه الخبرة حيال حدوده التي لا يمكنه تجاوزها، نشأ في الإنسان اختبار عجزه وارتباطه بقوات غير معرضة لمثل هذه الصعوبات وباستطاعتها أن تساعد على التغلب على الأخطار المحيطة بحياته.

وبما أن هذه القوى الخفية التي تحكم الكون وتدير نظامه أرفع من الإنسان وأقوى منه، وهي تبدو له مغلفة بالسر لا يقدر أن يطمئن لاتجاه عملها وتأثيرها في الكون، فالإنسان يشعر إلى جانب هبة الخوف الذي يعتريه تجاه الطبيعة والهم الذي يرافقه بالنظر إلى حياته، يشعر برهبة كبيرة أمام هذه القوى الكونية، ويشعر من ناحية أخرى برجاء كبير، آملاً أن تمنحه نعمتها وتساعد في ضيقه.

### - المجال الأخلاقي

مع تطور الزمن ظهرت الناحية الأخلاقية في الشعور بالحاجة إلى الخلاص. فالإنسان لم يعد يحرص على إقامة شعائر عبادته بطريقة لا تثير غضب الآلهة أو الأرواح وتكسب رضاهم، وذلك بابتعاده عن النجاسة واكتساب الطهارة وحسب، بل إنه قامت في قلبه مشاعر الخطأ الأخلاقي والذنب المسلكي. فالإنسان يشعر بعدم كفاءته لاكتساب

رضى الله بفضل تصرف خالٍ من الإثم والشوائب. لذلك يشعر بخطيئته أمام الله وبذنبه أمام القدرات الكونية العلوية. ولذلك يسأل الله المغفرة لخطاياها، والعون على اكتساب الفضائل وممارسة البر والتقوى.

### - المجال الماورائي والمجال الروحاني

وفي درجة أعمق من الشعور بالعجز والحاجة إلى الخلاص، يبلغ الإنسان الحائر على موهبة روحانية، إلى اختبار حاجة الوجود الإنساني في أعماقه إلى الخلاص الكياني أو الروحاني. فارتباط الإنسان بما يفوقه ارتباطاً لا مناص منه، وعجزه الذي لا يمكنه التغلب عليه، وحدوده التي لا يستطيع تخطيها، كل ذلك يجعله يشعر بحاجته إلى الخلاص في أعماقه المطلقة. فالإنسان ليس هو رب العالم، ولا هو سيد الحياة والموت. ومن هنا يختبر الإنسان بُعد الله الكياني، أي يختبر الإنسان عجزه الذاتي عن أن يصير إلهاً.

### (٢) أبعاد الخلاص

اختبار الإنسان لتعثره في مجالات مختلفة يبعث فيه الرغبة في التماس الخلاص. وهذا الخلاص له أبعاد ثلاثة:

### - الخلاص الكوني

إن ضمان أمان الحياة ونموها في المجال الفردي وفي الأسرة والمجتمع، يفرض وجود كون سليم صالح، تقوم قواه بمهماتها قياماً تاماً، وتحصل فيه الظواهر الطبيعية وفقاً لنظام متناغم وقوانين ثابتة.



## - الخلاص الدنيوي

وهذا الخلاص يحصل في مجتمع سليم البنية، يسود فيه السلام والنظام والعدل والسعادة، وفي حياة فردية سليمة تشمل التغلب على الأخطار والضيق والمرض والأذى، وإقامة الشعائر الدينية إقامة طاهرة صحيحة، وتجنب الزلل الأخلاقي والذنب، ومغفرة الخطايا، وأخيراً، على قدر الإمكان، إقامة علاقة وثيقة بالله حتى درجات الاتحاد به، ذلك الإله الذي يقلص بعده ويخرج من احتجاجه ويأتي لملاقاة من يلتمسه.

## - الخلاص المعادي

البعد الثالث للخلاص هو البعد الأخروي.

## سبل الخلاص

إنَّ البحث عن سبل للخلاص فعالة يشير إلى أنماط مختلفة من الوسائل.

## ١. السحر - الدين

وفق تصرف الإنسان حيال القدرات المقدسة، يمكن وصف أساليبه بأنها سحر أو دين.

(١) يقوم السحر بأن يحاول الإنسان أن يخضع القدرات المقدسة أو الآلهة لمصالحه ولتوقه إلى الخلاص في مختلف أبعاده، وأن يسوقها إلى القيام بخدمة هذه الأغراض. فالإنسان يظن أنه باستعمال وسائل تقنية

يمكنه أن يتسلط على قوّة القدرة الإلهية ويجرّها إلى أن تقدّم له العون لتأمين حاجات حياته.

(٢) أمّا في الدين فيعتبر الإنسان نفسه خاضعاً للقدرات الإلهية ومحتاجاً إلى معونتها، فيحاول أن يكتسب التفاتتها وعطفها. فيضع نفسه في خدمة الآلهة — أو قل: في خدمة الله — راجياً أن ينعم بفضل منها. ولكي يحصل على هذا الفضل فهو يقوم بشعائر مختلفة، ويرفع الصلاة ويقدم الضحايا، ويتحمل حتى مشقات الزهد والتخلي عن آميال القلب.

وقد يمتدّ أمله فيتطلّع إلى إشارة من قبل الله تبين له أن الله يتدخل في شؤون حياته، وقد يسوقه إلى الاستغراق الروحاني في أسرار الألوهة. فبفضل عمل الألوهة تقوم صلة وثيقة بين الله والإنسان، وهي أفضل سبيل إلى الحصول على الخلاص النهائي.

## ٢. الله — الوسيط

في إطار الموقف الديني يمكن التمييز بين نمطين من سبيل الخلاص.

(١) يحاول النمط الأول أن يؤدي إلى الخلاص بواسطة فادٍ أو مخلص. فيرجو الإنسان أن يحصل على الخلاص بواسطة تدخل مباشر من قبل الألوهة، وذلك إمّا عن رحمة منها أو بفضل أفعال جزيلة النفع والجزاء (كالعبادات والمحافظة على الشرائع، والزهد، والتمارين الروحانية). هذا

النوع يسود في نطاق الأديان الطبيعية التقليدية، والأديان الشعبية، والإسلام من بين الأديان المتطورة.

(٢) أمّا النمط الثاني فيعتمد على فعل مخلص يكون وسيطاً في عملية الخلاص. ويُعتبر فعل المخلص هذا إما عوناً نافعاً أو شرطاً لا غنى عنه للحصول على الخلاص المرجو. والمخلص هذا يكون شخصاً من أشخاص مستقاة من قصص نشوء الخلاص وتطور الكون (مثل آلهة طقوس الخلاص، أو الإله فيشنو وأنواع تجسده في الهندوسية، أو القدرات المنشئة للثقافات والأنظمة في أول تنظيم الخلق). وقد يكون شخصاً تاريخياً (مثل زرادشت في إيران القديمة، أو يسوع المسيح في المسيحية).

(٣) ولدينا نمط خاص في البوذية القديمة. فبوذية المركبة الصغيرة، كما تُدعى البوذية الأولى، تتصور الخلاص تحرراً من دورة الولادات المتكررة ومن معاناة الحياة. هذا التحرر هو نتيجة اليقظة للمعرفة الحقة. وهذه اليقظة ليست عطية إله ما، فإن الآلهة نفسها في تعليم البوذية القديمة بحاجة إلى الخلاص. اليقظة تحصل في الإنسان بواسطة جهد قدراته الشخصية، فليس هو بحاجة إلى عون خارجي.

أمّا بوذية المركبة الكبيرة التي نشأت في زمن متأخر فهي طريق الكثيرين، وهي تستند إلى عون مخلص في سعيها إلى الخلاص. والمخلص هو بوذا أو أحد البوذايات السماوية، أو البوديستا وهو متحرر يذل نفسه لمساعدة البشر على البلوغ إلى التحرر والخلاص.



٤) مقابل التصورات الدينيّة عن الخلاص وسُبله هناك نظرات إلى العالم أخرى تسعى إلى الحصول على عالم سليم، بدون الالتجاء إلى عون خارجيٍّ أو مخلص وبدون الإيمان بقدرة إله على الإتيان بالنجاة والخلاص. ففي بعض أشكال الأنسنة العصريّة، يكون الإنسان نفسه محور جهوده، بحيث تكون قوى الإنسان عينه الوسائل الوحيدة المعترف بها التي من شأنها أن تقود إلى الخلاص والسعادة، والركائز الوحيدة التي يقوم عليها العالم السليم الذي يكون الإنسان قد خلقه بنفسه.

#### ٤. الدين

##### ١) مفهوم الدين

إن اختبار الإنسان لحضور الله وعمله في الكون وفي حياة البشر يأتي التعبير عنه في نطاق الأديان المختلفة. وقد حاول الكثيرون أن يقدموا تحديداً لمفهوم الدين. وجاء تحديدهم هذا مطابقاً لنظريّاتهم الخاصّة في الدين. ونعرض هنا تحديداً ينطلق من مفهوم عامّ جداً ويحاول أن يأخذ بعين الاعتبار جميع الأبعاد للظاهرة الدينيّة، دون التحيز إلى نظريّة معيّنة. الدين هو إقرار الإنسان الواعي بأنّ حياته ومصيره متعلّقان بكائن متعالٍ عنه وعن العالم، والتعبير عن هذا الإقرار الواعي في نطاق حياة الفرد والمجتمع.

##### ٢) العناصر المختلفة التي يتألّف منها الدين

١. أساس الدين هو الإيمان بوجود كائن متعالٍ، سواءً اعتُبر هذا



الكائن شخصاً أم مجرد قدرة لاشخصية، والإيمان بأنّ هناك ارتباطاً بين هذا الكائن والعالم والبشر. فالدين هو الاعتراف بهذه العلاقة، لا اعترافاً عقلياً على مستوى الفكر وحسب، بل اعترافاً يشمل الوجود كلّ وتأكيداً صادراً عن الإنسان بكلّيته. ولذلك لم يرد في التحديد "معرفة الإنسان بأنّ..."، بل "إقرار الإنسان الواعي بأنّ..."، أي اعترافه الوجوديّ بذلك.

٢. والإيمان لا يمكن أن يبقى مجرد موقف داخليّ، فالإنسان كائن اجتماعيّ، من طبيعته طلب الاتّصال بالآخرين، وهو بحاجة إلى هذا الاتّصال. ثمّ إنّ الإنسان كائن قائم في وحدة الروح والجسد، ولذلك فلا يمكن أن يبقى الباطن والاعتراف بأمرٍ ما دون تعبير خارجيّ محسوس، وإلاّ تعرّض الموقف الباطن للتلاشي وللغياب عن نطاق الإحساس والاختبار.

والإيمان يعبر عنه في عناصر مختلفة، أهمّها ما يلي:

- العقائد ومقولاتها. وهي طبقات: التعاليم الإلزامية، التقاليد المتوارثة المنقولة، التعاليم المعروضة والنظريات المختلفة.

- الشعائر الدينيّة. وهي تستند إلى العقائد. وهنا تظهر مفاهيم وممارسات حول الوقت المقدّس، والمكان المقدّس، وما يحدث في الطقوس المختلفة من كلام (مثل الصلاة وغيرها)، وأفعال، وقرابين، وذبائح إلخ...

- التطبيق العملي في مجالات الحياة لما يفرضه الدين وما تتطلبه الشعائر الدينية. وهذا يتناول مقاييس الخير، وقواعد السلوك الأخلاقي من وصايا وغيرها، بما فيه الأوامر والنواهي، والواجبات والمحرمات.
  - تنظيم حياة الجماعة. وذلك يتضمن العادات الثابتة، والحقوق والقوانين والقواعد التطبيقية.
- هذا كله ينتسب إلى جماعة دينية أقامت ذاتها كمؤسسة منظمة.

### ٣) علاقة المؤمن الفرد بالجماعة

وهكذا يتضح الوجه الفردي الشخصي للدين، ووجهه الاجتماعي أيضاً. فالدين بصفته إيماناً ومسلماً شخصياً هو من خصائص الأفراد، لكنه يظل في الوقت عينه في ارتباط مع الجماعة، إذ إن الإيمان يستمدّ عبارته الخارجية المحسوسة من الجماعة، وهي التي تحدّد مفاهيمه ومضمونه. والإيمان أخيراً يصل إلى الأفراد بواسطة الجماعة، وبفضل الارتباط بها ينشأ وينشط عند الأفراد.

وكذلك القول في المسلك الفردي المطابق للإيمان، فإنه لا يستقرّ في الفرد ولا يتحقق في حياته بدون وساطة الجماعة ومساندتها.

أمّا الصفة الجماعية للدين فظاهرة بوضوح أشدّ:

- في الصيغة اللغوية التي فيها تُسبك المعتقدات، وفي إقرار هذه العقائد، وإثبات التراث الإيماني والتعليمي والفكري، وفي فرض هذه كلها فرضاً ملزماً بدرجات مختلفة، منها مثلاً العقائد الملزمة تماماً، ومنها التعاليم المتواترة، ومنها النظريات...



- في تحديد مراسيم الشعائر الدينية وإقامة هذه الشعائر، وتحديد الأماكن المقدسة والأزمنة المقدسة المكرسة لهذه العبادات والشعائر المختلفة.

- في إضفاء الشكل المناسب على حياة الجماعة طبقاً لمقولات العقيدة والتراث الديني الأخلاقي، وفرائض النظام والقانون.

### ٥. ملاحظات ختامية

(١) لم يكن الغرض من هذا العرض شرحاً نفسياً أو ماورائياً للظاهرة الدينية، بل كشفاً وصفيّاً عن بُنى مختلفة للاختبار الدينيّ يمكن العثور عليها في شتى الأديان.

(٢) وهذه البنى والأنماط المختلفة لا تحصل كلّها بقدر واحد في الأديان جميعها. فهناك أوجه عديدة تختلف من دين إلى آخر، وتختلف باختلاف درجة التطور في تاريخ الدين الواحد. ثمّ إنه ليس هناك دين معيّن توجد فيه البنى في صيغتها الصافية كليّاً، فالأديان تحتوي على رواسب من بُنى تلاشت وعلى آثار من العناصر العامة للاختبار الدينيّ.

(٣) ثمّ إنّ الوعي لحاجة الإنسان إلى الخلاص يظهر على مدى حقبات التاريخ في أشكال تختلف في ربطها بين الفرد والجماعة من حقبة إلى أخرى.

- ففي المجتمعات القبلية البدائية ينصهر الفرد عمليّاً انصهاراً تامّاً في المجتمع ويندوب فيه. ولذلك فاختباره الدينيّ وشعوره بالحاجة إلى

الخلاص مرتبطان ارتباطاً وثيقاً باختبار الجماعة وبتشوقها إلى الخلاص والتماسها له.

ثم إن الجماعة نفسها مرتبطة بالكون ارتباطاً يُضفي على الخلاص والدين عامّة، إلى جانب الصبغة الاجتماعية، صبغة كونية كبرى. والذهنية الوحيدة عند الشعوب البدائية تؤكد ارتباط الإنسان بالكون ارتباطاً حياتياً، ليس هو موضوع التفكير والتحليل والاستنتاج. - إن ظهور الفردية في أول مراحلها رافقت تصدّعاً في العلاقة بين الأفراد والمجتمع. وعندها اكتسب الاختبار الديني والتماس الخلاص أبعاداً شخصية فردية، وبدأ انفصال الفرد رويداً رويداً عن نطاق الكون ومجال المجتمع.

- في العصور الحديثة اتضح للإنسان أن بناء شخصيته وتركيزها يحصل بقدر كبير في المجتمع وبفضل المجتمع. وبذلك عاد الإنسان يكتشف الارتباط الذي لا يفصم بين الفرد والكون والمجتمع. وفي هذه الحقبة قام السعي إلى بلوغ توازن صحيح بين القطبين، أي بين الجماعة والفرد. وهذا يعني:

\* تقوية العنصر الداخلي الشخصي المتعلق بالدين وطلب الخلاص،  
\* مع ربط ذلك بنظام الكون والمجتمع والبيئة.

(٤) أوردنا أن الاختبار الديني كما يعبر عن نفسه في الأديان ينشأ من اختبار العجز البشري. وهذا يشير إلى أن الدين أحد الأبعاد في كيان الإنسان بصفته كائناً منفتحاً على الماورائيات والعلويات.

صحيح أن الحدود التي تبين عجز الإنسان قد تمّ تقليصها خلال التاريخ بفضل تقدّم العلم والتقنية، وأنّ الحواجز قد تمّ الخطّ من ارتفاعها. ولكن لا يمكن الإنسان أن يُلغى تمامًا الاصطدام بهذه الحدود واختبار العجز الكيانيّ تجاهها. وفي أبعد الأحوال يصطدم الإنسان بعجزه التامّ أمام الحدّ المطلق في مجرى مصيره، وهو الموت، وواقع وجود العالم بدل أن لا يوجد.

وحتى الذين يُنكرون التعالي الإلهيّ ويناوئون الدين لا يدّعون أن حدود الإنسان تمكن تنحيها، لا في الحاضر ولا في المستقبل. من هنا قامت في بعضهم انتفاضة التمرد على المصير (كما هو الحال في فلسفة سارتر)، أو اتّخذ الآخرون موقف البطولة المتصلّبة، التي تحاول أن تتقبّل وجود حدود للكيان البشريّ وتحمل عبث حياة الإنسان وفقدان معناها تحملاً مترفعًا صامدًا (مثل عند ألبير كامو).

ومهما يكن من أمر، فإنّ هناك شيئًا يمكن إثباته: طالما قاد اختبار الحدود والعجز الإنسانيّ إلى الإقرار بوجود كائن متعالٍ عن العالم وعن الإنسان، فهناك بقي مجال للدين.



## الفصل الثاني

### السلامة القديمة: زمن الفردوس

نُصادف لدى أديان كثيرة، ومنها أديان الشعوب البدائية التقليدية، قصصًا تتناولها الأجيال أو دُونت في الكتب المقدسة، قصصًا تتحدث عن وضع العالم والبشرية في مطلع الزمان القديم. وهي تحتوي على مقولات حول كيفية نشوء الكون والبشر وعمل الخالق في هذا المجال، وحول الوضع الذي كانا عليه عند إخراجهما إلى الوجود. هذا الوضع القديم يوصف في غالب الأحيان بأنه وضع سلامة وتناغم رضيّ، كان فيه العالم يركز على نظام فعّال وينعم فيه البشر بعيش سعيد. هذا هو زمن الفردوس.

### العالم السليم في الزمن القديم

#### ١. الخواء والماء

يرد في كثير من روايات نشأة الخلق أنّ العالم المنتظم كُوّن من الخواء. والخواء قائم في صورة الماء. الماء هو العنصر القديم الذي لا يحصره شكل، والذي يمحو ويذيب الأشكال المختلفة. ولكنّ الماء هو أيضًا أهمّ عناصر نشأة الكون لأنّه يحتوي على جميع أشكال التفتح، وجميع أحوال النمو، وجميع بذور الحياة. ولكن طالما لم يتدخل الخالق ليكونّ العالم ويبرزه خارج الخواء ويحدّد له نظامه، يبقى الماء القديم، رمز الخواء والبليلة، سائدًا.



## ٢. نشأة العالم

يُصوّر تدخّل الخالق في بعض قصص النشوء كصراع مع قوَّات الخواء، أي قوَّات الماء. وانتصار الخالق هو الذي يجعل تدبير كون منتظم ممكنًا. نرد مثالاً على ذلك مختصر ما جاء في قصّة النشوء عند البابليين القدماء "إنوما إليش" ("عندما كان هناك في العُلى"، وهي تعود إلى القرون التاسع عشر إلى السابع عشر قبل المسيح)، وهي تصف صراع آلهة السماء مع آلهة الماء، رمز الخلود والبلبلّة، وعلى رأسهم تيامت. أمّا آلهة السماء فقد انضمّوا إلى فرقة الإله الشاب مردوك، الذي يمثّل قدرة الدولة البابليّة الجديدة.

تسلّم مردوك من الآلهة الصوبلجان والعرش والهرّاة إشارة إلى سلطته وحثّاً على استخدام القوّة الكامنة فيها. فبرأ مردوك بقدرة كلمته أقواساً ورماحاً وهرّوات، والبرق والشّباك للقبض على تيامت، والرياح والأعاصير واللجج، ومراكب القتال. ثمّ انتصب في قامة تنشر الذعر، وفي يده نبتة تُزيل مفعول السّم الذي تنفثه تيامت. ثمّ نادى مردوك: "هيا إلى القتال، لنقطع لتيامت أنفاس الحياة".

عندما أبصرت جنود تيامت أسلحة مردوك استملك عليها خوف شديد. فنطقت تيامت بعبارة سحرية ووجّهت إلى مردوك كلاماً ساخرًا. ولكن مردوك أمسك بإعصار وناداهَا: "أنت التي اتّخذت كينغو زوجاً لها وقرّرت معه أن يعيّا فساداً ويهلكا الآلهة، تعالي نتقاتل وتتنافس". ففتحت تيامت شديقها واسعاً وتلفّظت بعباراتها السحرية.

ولكنّ مردوك أطلق الريح العاصفة في شدقها، بحيث لم تعد تستطيع أن تغلقه، وجعل العواصف الشديدة تنفخ جسدها، وأطلق سهمًا في حلقها مزّق أحشاءها واخترق قلبها. ثمّ كبّل مردوك تيامت، ورمى بها وارتقى على جسدها ظافراً. فاستولى الذعر على تنانين تيامت ولجأوا إلى الفرار. ولكن مردوك لحق بهم، وحطّم أسلحتهم والتقطهم في شبكته.

ثمّ شطر مردوك جسد تيامت شطرين، وخلق منها السماء والأرض. ثمّ نصب حرّاسًا يمنعون المياه من الهبوط من السماء. ثمّ أنشأ مقابل السماء مجتمعا المياه، مسكن الإله الحكيم إيا. هكذا صنع مردوك السماء والأرض والبحر، وجعل عليها ثلاثة آلهة: أنوا ليحكم في السماء وإنليل (= إيل) ليحكم في الأرض، وإيا ليحكم في البحار. (هكذا تمّ تنظيم عالم الآلهة). ثمّ خلق مردوك ونظّم مجرى الكواكب وأشكالها، وحدّد مسيرة الأجرام السماوية. وفتح على طرفي السماء الأبواب التي تشرق الشمس فيها وتغيب فيها، ثمّ حدّد أشكال القمر وأزمته.

وعندما اشتكى الآلهة لديه أنّ ليس هناك من يُكرّمهم ويقدم لهم القرابين والذبائح، قرّر مردوك إرضاء مطلبهم. وهكذا خلق الإنسان، الذي عليه أن يقوم بإكرام الآلهة وخدمتهم.

في هذه القصّة وغيرها مثلها عند شعوب أخرى يأتي التأكيد أنّ الخالق المنتصر أبرز إلى الوجود عالماً سليماً، متناغم المجرى، يسود بين قدراته نظام وثيق. فنواميس العالم وقوآت الكون في مختلف اتصالاتها وعلاقاتها المتبادلة لها شكل مُحكم يؤلّف قاعدة موافقة لتفتح الحياة البشرية. هذا يعني أنّ نظام العالم وتناغم الكون في الزمن القديم لا يكمن



فيهما خطر محقق على الإنسان، لأنّ الكون قائم على بنية حسنة ولأنّ الخالق لا يزال يرعى عمل يديه.  
من هنا توصف حال الإنسان القديمة بأنها حياة هنيئة سعيدة، حياة في الفردوس.

### الإنسان السعيد في زمن الفردوس

#### ١. الفردوس

لا تتكلّم جميع قصص النشوء عن مكان خاصّ تصفه بأنّه الفردوس، فأكثر قصص الشعوب تصوّر مواطن الإنسان الأوّل بشكل شبيه بموطن الشعب الخاصّ. ولكنّ هناك أوصافاً بمكان خاصّ يصحّ تسميته بالفردوس، حيث تقوم أحوال منتظمة ويعيش الإنسان في سعادة صافية. نورد على سبيل المثال مقطعاً من قصّة الفردوس ("قصّة تلمون") لدى البابليين، تصف الموضع الذي ينام فيه الزوجان الإلهيان إنكي وقرينته "العذراء الطاهرة". فتلمون هو البلد البتول الطاهر:

في تلمون لا ينشق غراب،

ولا يطلق الطائر إتيديو نداء الطائر إتيديو،

ولا يقتل أسدّ

ولا يقتنص ذئب حملاً

ولا يوجد الكلب البرّي بالحملان...

العين المريضة لا تقول: لي وجع في العين.

الرأس المريض لا يقول: لي وجع في الرأس.

المرأة العجوز لا تقول: إني امرأة عجوز.  
 الرجل المسن لا يقول: إني رجل مسن".  
 فالفردوس ليس فيه أيّ تهديد للحياة. ليس فيه موت، ولا حيوانات  
 ضارية، ولا مرض، ولا هَرَم الخ... الفردوس موطن البشريّة عند خلقها  
 في البدء كان يسود فيه السلام والسعادة والتناغم.  
 إنّ قصص النشوء الكثيرة التي تصف هذه الحال الأولى تعبّر في  
 معظمها عن حاجة البشر إلى إسناد النظام في مجتمعاتهم إلى عمل الخالق  
 وأحكامه، وإلى إضفاء سلطة خاصّة على التقاليد المتوارثة، سلطة نابعة  
 من قدرة الخالق. ولذلك نرى بعض القصص تروي أنّ مؤسّس الحضارة  
 الأولى هو الخالق نفسه أو مساعد له.  
 ولكنّ وصف هذا الوضع المثاليّ القديم يعني أيضًا في بعض أوجهه  
 انتقادًا لنقص النظام الحاضر. فشوق الإنسان إلى إعادة الوضع  
 الفردوسيّ القديم يعني أنّ هذا الوضع مفقود، وأنّ العالم الحاليّ قد ابتعد  
 عن الوضع القديم، ولذلك يجب سدّ الفراغ وإصلاح الوضع القائم.

## ٢. بعض الأمثلة من قصص الشعوب

### (١) من أفريقيا

#### ١- الزمن الفردوسيّ

في غابات كامرون نعثر على وصف مفصّل لسعادة الزمن القديم. في  
 ذلك الوقت كانت غلات الحقول تقوم نفسها بالزراع، والحيوانات  
 تقدّم نفسها لحمها لطعام البشر. وكانت المراحل تقوم هي نفسها

بالطبخ، وكانت الأشغال كلها تتم تلقائيًا. ولكن حدث يومًا أن امرأة لم تتم الأحكام الملقاة عليها.

زال ذلك الزمن السعيد. مثل هذه القصص والروايات تؤكد أن وضع البشر الحالي انحط من مستوى الزمن القديم، وذلك بسبب خطيئة الإنسان.

من عناصر أوصاف الزمن القديم هو تأكيد الارتباط بين عالم الإنسان والعالم العلوي والكائنات العلوية. فهناك القول بأن الله أو السماء كان يخالط البشر في مواطنهم، أو القول بأنه يعيش منفردًا، دون أن ينقطع عن البشر، إذ كانت هناك صلة بينه وبينهم، أكان ذلك بشكل تبادل الزيارات أو بشكل سُلّم يربط الأرض بالسماء. ثم انقطعت هذه العلاقة عمدًا أو عن سبيل الصدفة<sup>١</sup>.

## ٢- نشأة الثقافة والحضارة

- أحكام الخالق: عندما انتهى كمفهوم من خلق الناس أعدادًا كثيرة، قال لهم: "كلوا واشربوا. فقالوا: ماذا نأكل وماذا نشرب؟ فدلّهم الله على ذلك وبين لهم ماذا يحلّ أن يأكلوا وأن يشربوا، وماذا لا يحلّ لهم أن يأكلوا وأن يشربوا".

- الجماعة في القرية: لقد جاء في قصة خلق البشر من جوز الكولا أن الناس كانوا بانتظار الخالق. وكانوا قد عيّنوا على رأسهم شيخًا لهم، هو أوّل إنسان خلقه الله. ولما بلغ الله الشاطئ، وضع رجله على اليبس.

<sup>١</sup> - راجع: Ernst Damman, Die Religionen Afrikas, Stuttgart 1963, 86-87.



وكان جميع الناس بانتظاره. فتكلم شيخ البشر قائلاً له: ها أنذا. وقال جميع الرجال: ها نحن. وكانت النساء واقفات من ورائهم. [هذا مظهر جماعة منظمة]. فقادهم الخالق إلى قريته. وعندما وصلوا جميعهم إلى الساحة الكبيرة، قال لهم: سوف تسكنون هنا. ها هي أكواخنا. فالخالق يقول هنا: ها هي أكواخنا، لأنه يريد أن يسكن في ما بين البشر. والقصة تتابع وتقول: "ومنذ ذلك الحين كان الخالق رئيس قرية البشر".

– أحوال البشر القديمة

– إنَّ حال البشر في صحبة الخالق، يوم كان الله رئيس قرية البشر، كانت حال سعادة. والقصة تصف ذلك بالكلمات التالية:

"كان الخالق يتناول الطعام مع البشر، وكانت النساء يُعددن الطعام. وزال عن الخالق الضَّجر مطلقاً. وكانت النساء يعددن الطعام، طعاماً شهياً جداً. ومتى انتهى الناس من الأكل، كانوا يتمددون ويدخّنون الغليون. وكانوا يروون قصصاً بعضهم لبعض. كان هذا هو الزمن السعيد حقاً. يا لشقائنا نحن الآن! هذا ما كان في ذلك الزمان".

– تفرّق البشر على الأرض

وعندما خلق الله أجناس البشر المختلفة، وزَّع عليهم هباته سائلاً كلَّ شعب عن أمنياته. وفي آخر الجلسة قال لهم: والآن اذهبوا جميعاً. فذهبوا، الواحد منهم إلى اليمين، والآخر إلى اليسار، والآخر إلى الأمام، والآخر إلى الوراء. أمّا الخالق نفسه فمضى هو أيضاً. أجل لقد مضى.

## (٢) من أستراليا

## ١- نشأة الثقافة والحضارة

- تروي القصة أن بُندجيل أعطى لكل رجل خلقه امرأة زوجاً له. ثم إن بُندجيل وضع في أيدي الرجال رماحاً، فأعطى كل رجل رمحاً. وأعطى باليان كل امرأة عصا للنبش في الأرض.

هذه هي أدوات كسب المعيشة: رمح الرجال يُستخدم للصيد، وعصا النساء لجمع الثمار وزرع الحبوب والنبات.

- ثم إن باليان خاطب الرجال والنساء وأمرهم أن يعيشوا معاً. وأمر الرجال أن يستخدموا رماحهم لرمي الكنغر، وأمر النساء أن يستعملوا العصي لاستخراج الجذور.

- ثم لبث باليان وبندجيل مع الزوج ثلاثة أيام، يخرجان معهم ويرياهم كيف يكسبون معيشتهم، ويعلمان الرجال كيف يرمون الكنغر والأيل، ويلقنان النساء كيف يجدن الجذور الصالحة للأكل.

بهذا يرافق بندجيل وباليان البشر كمؤسسين للحضارة الأولى. فمكوتهما ثلاثة أيام بصحبة البشر هو أحد عناصر الزمن الأول السعيد، زمن الفردوس في صحبة الخالق.

## ٢- رحيل الخالقين

بعد مرافقة الخلائق زمناً قصيراً ارتفع الخالقان في عاصفة شديدة إلى الأعالي ورحلا عن البشر. وتقول القصة:

"وفي اليوم الثالث كان بندجيل وباليان والزوج الأربعة جالسين



جميعهم معاً فهبت عاصفة في اليوم الثالث، عندما كانوا جالسين معاً. في اليوم الثالث، عندما كانوا جالسين، هبت عاصفة، عاصفة شديدة. فحملت الريح الهوجاء العاصفة، العاصفة الشديدة، بندجيل وباليان إلى الأعالي، بعيداً جداً. ومنذ ذلك الوقت لم يعد الزنوج يعاينون بندجيل وباليان.

"بعيداً جداً": إنَّ العبارة ملأى بالشوق الأليم الذي يملأ البشر بعد ابتعاد خالقهم عنهم، الذي وضعهم في هذه الأرض الجديدة.

### ٣) من ميلانيزيا

كانت القبائل تعيش كل واحدة منعزلة في منطقتها، ولم تكن هناك قوارب للعبور من جزيرة إلى أخرى. فاهتزت في قلب "الحية الكبيرة" الرأفة بهم. فاختارت من بينهم قبيلة وعلمت أعضائها صنع القوارب. وسلطتهم على فيجي كلها، كان هؤلاء شعباً عظيماً قديراً.

كانت الحية الكبيرة تقطن في جبل كاوفاندرا. ووهبت المنطقة كلها من حول الجبل القبيلة التي اختارتها. فبنوا لأنفسهم مدينة مرتفعة قائمة على الجبل، هناك عاشوا بأمان، إذ لم يكن أيّ عدوّ بإمكانه أن يصل إليهم.

وكان الله يظهر مرّات كثيرة ويتحدّث معهم. ولقّنهم أموراً كثيرة، بحيث صاروا أكثر مهارة من سواهم.

هذا كان زماناً جميلاً. كانوا يعيشون في سلام ورغد<sup>٢</sup>.

<sup>٢</sup> - راجع :

## (٤) من أميركا الجنوبية

"في ذلك الزمان لم تكن هناك مشاجرة، وكانوا جميعهم سعداء. ولم يكن أحدٌ منهم مريضًا. ولم يمِث أحد. وكانت أرواح الغابة تعيش معنا في ذلك الزمان، كأصدقاء ورفاق. وكانت قاماتهم قصيرة مثل قاماتنا. وكان أحدهم، ويُدعى يوروكُن، يتردّد غالبًا على أجدادنا ويحتسي معهم الشراب. وكان يتردّد بطريقة منتظمة مرّة في الشهر لأجل ذلك".<sup>٣</sup>

## (٥) من أميركا الشماليّة

ورد في بعض قصص الخلق أنّ الناس كانوا بعد خلقهم يقطنون في بطن الأرض. ولما تمكّنوا من الصعود إلى سطح الأرض عاينوا لأول مرّة البقاع التي وصلوا إليها. فشاهدوا الغابات والحيوانات البريّة وطيور الفضاء، وفرحوا بكلّ ما رأوه في محيطهم. وتحوّلت حياتهم إلى وضع جديد. ولكنّ النور كان يهرّ أبصارهم. فأخذ الغراب قطعة من الحجر الأسود ورمى بها في الفضاء. فضوّل النور للحال، واستطاع البشر أن ينظروا دون أن تؤلمهم أعينهم. وحلّ بواسطة الحجر الأسود الليل فمنحهم الراحة. وأخذ النهار والليل يختلفان في اليوم الواحد.

وفي ذلك الحين اندلعت لدى البشر جميع الأفراح. ولقّنهم الغراب أن ينوا بيوتًا تقيهم عناء الريح وتقلّب الطقس، وعلمهم تركيب القوارب

<sup>٣</sup> - راجع رقم ١٧١، من صفحة ٤٢٢ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.



وصناعة صيد الأسماك، فاستطاعوا بذلك أن ينتقلوا في البحر ويصطادوا الحيوانات الساكنة فيه.

ولما صارت حال الأرض على ما يجب أن تكون، جمع الغراب جميع البشر وقال لهم: أنا أبوكم، وهبتكم بلدكم وحياتكم. فيجب عليكم أن لا تنسوني أبداً. ثم طار وارتفع عن الأرض وصعد إلى السماء حيث لا تزال الظلمة سائدة<sup>٤</sup>.

إلى مثل هؤلاء الكائنات يرجع الفضل حسب هنود الغابات والمراعي في إطلاع البشر على أسرار الرقص ولعبة الكرة، وهما عنصران مهمان في شعائر الدين. وكذلك الأمر تعود إلى مثل هؤلاء الكائنات معرفة التبغ والعقاقير التي تملأ جعبة المطب. ومن وظيفة الكاهن والمطب أن يحافظا على أسرار السحر والشعائر التي أعلنت له في وقت سابق. ويمتد ذلك على التصورات المتعلقة بطرائد الصيد وثمار الحقول<sup>٥</sup>.

في بعض الأحيان لا يقوم جانب الثقافة والحضارة بوظيفته مباشرة في المرحلة الأولى من خلق البشر، بل في زمن متأخر، كما ورد في القصة التالية لبعض الهنود:

قبل أن يكون هناك قمح وبقر وحشي، كان الناس يعيشون من الجذور، وكان الجوع يعم غالباً. وذات يوم رأى ولد صورة القمر في الماء، فأمره القمر بأن يصوم ويشرب من نبع عينه له. ولما انطلق، صادف ثلاث نسوة في أعمار مختلفة: شابة وواحدة متوسطة العمر

<sup>٤</sup> - راجع رقم ١٠٥، ص ٢٩٠، ٢٩١، من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.

<sup>٥</sup> - راجع: Wilhelm Wundt, Völkerpsychologie V, Leipzig 1914, 343-344.



والثالثة مسنة. ثم وصل إلى مغارة. كانت جالسةً فيها فتاة تستطيع أن تتحول إلى نسوة شبيهة مختلفه الأعمار. فصرّحت له أنّها القمر، وأعطته أدوات صيد وألعاب أقداح للرجال والنساء، وأرته تلة نمل كمثال للقُب التي يجب على شعبه أن ينيها، وأعطته قمحاً ليزرعه، ولقنته شعائر للحصول على بقر وحشي. بذلك تمكن الشعب لأول مرة من الحصول على غذاء<sup>٦</sup>.

### ٣. أهمّ أوصاف الحال الفردوسية

(١) أحد الأوجه البارزة في قصص نشأة الثقافة والحضارة هو أنّ ثقافة المجتمع المعنيّ يعود إلى مبادرة صادرة من مكوّن العالم. فالإله الخالق يسكن بين البشر في جماعة القرية الأولى ويلقّنهم مبادئ ثقافتهم وحضارتهم. فهو يعلمهم كيف يستطيعون أن يقوموا بحاجات حياتهم وتأمين هذه الحاجات، وأن يقوموا بتوزيع الوظائف والأعمال ليؤمنوا مقتضيات الحياة في المجتمع ويحموها ويطوّروها.

ومكوّن العالم يعلن إلى ذلك القوانين التي تعبّر عن إرادة الله الخالق، ويبيّن التصورات الدينية التي يجب أن تسود علاقة البشر بعالم الآلهة.

(٢) لكنّ الزمن الفردوسيّ هو قبل كلّ شيء زمن يتوق إليه الإنسان، زمن تجري فيه الحياة بلا صعوبات ومعاثر. فالرغد والأمان يمنعان قيام

<sup>٦</sup> - راجع ص ٣٤٥-٣٤٦ من المرجع السابق.

الهموم المتعلقة بحاجات المعيشة. وهو الزمن الذي لا يخضع فيه الإنسان للمرض، ولا للهرم، ولا للموت.

(٣) وعيش الجماعة لا يتعرّض للخطر، فليس في المجتمع الفردوسي أي نوع من العداوة. بل هناك اتفاق وتناغم وعندما يرد ذكر وجود أعداء ممكنين، يكون الفردوس في مأمن من وصولهم إليهم، كما تؤكد الرواية في ميلانيزيا.

(٤) والإنسان له في الفردوس ميزات خاصة. نقرأ في قصة أدايا البابلية: "هناك المدينة المقدسة إريدو، حيث يُكرّم الإله إيا. هناك جنة الآلهة. في هذا المكان المقدس خلق الإله إيا (الإنسان القلم) أدايا، ومنحه جميع الصفات الحميدة، منحه الحكمة الإلهية، بحيث كان أحكم الخلائق. أمّا الحياة الخالدة فلم يهبه إياها".

(٥) تعبّر الروايات عن وضع الفردوس تعبيراً قوياً عن رغبة الإنسان في الحصول على علاقة دائمة بالله أو بالآلهة. فالزمن السعيد هو عندها الزمن الذي كان الله يسكن بين الناس يشاطرهم حياتهم، وبعض هذه الروايات يقول إنّ الإله كان "صغيراً مثلنا" (أميركا الجنوبية).

## العالم السليم وزمان الفردوس في الكتاب المقدس

### ١. العالم السليم

إنّ العالم الذي أخرجه الله إلى الوجود هو عالم حسن سليم. ورد في

نهایة قصّة خلق العالم في سفر التكوين (١ : ٣١): "ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسنٌ جداً". وكان هذا تأكيداً لما ورد عن تفاصيل الخلق، حيث يردّد النصّ: "ورأى الله ذلك إنه حسن" (١ : ١٠ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٥).

## ٢. الجنة

"وإنّ الربّ الإله جَبَلَ الإنسان تُراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار الإنسان نفساً حيّة. وغرس الربّ الإله جنةً في عدن شرقاً، وجعل هناك الإنسان الذي جبله. وأنبت الربّ الإله من الأرض كلّ شجرة حسنة المنظر وطيّبة المأكّل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشرّ. وكان نهرٌ يخرج من عدن فيسقي الجنة، ومن ثمّ يتشعب فيصير أربعة رؤوس" (تكوين ٢ : ٧-١٠).

"وأخذ الربّ الإله الإنسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها" (٢ : ١٥).

## ٣. الحياة في جنة الفردوس

"وقال الربّ الإله: لا يحسن أن يكون الإنسان وحده، فأصنع له عوناً بإزائه. وجبل الربّ الإله من الأرض جميع حيوانات البريّة وجميع طير السماء، وأتى بها آدم ليرى ماذا يسمّيها. فكلّ ما سمّاه به آدم من نفس حيّة فهو اسمه" (تكوين ٢ : ١٨-١٩).



"... وأما آدم فلم يوجد له عونٌ بإزائه، فأوقع الربُّ الإله سُبَاتًا على آدم فنام فاستلَّ إحدى أضلاعه وسدَّ مكانها بلحم. وبني الربُّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، فأتى بها آدم. فقال آدم: ها هذه المرأة عظمٌ من عظامي ولحم من لحمي. هذه تسمَّى امرأة لأنَّها من امرئ أخذت... وكانا كلاهما عُريَّانين آدم وامرأته، وهما لا ينجلان" (تكوين ٢ : ٢٠-٢٣، ٢٥).

ثمَّ ورد في النصِّ أنَّ الربَّ الإله كان "متمشيًا في الجنة عند نسيم النهار" (٣ : ٨). فهو بعد أن جلب إلى الجنة جميع ما يحتاج إليه الإنسان لمعيشته وأمرهم أن يفلحوا الجنة ويحرسوها ويأكلوا من ثمارها، كان يتردّد في الجنة ويخالط الإنسان الذي خلقه وبسط لها وصاياها.

#### ٤. الوضع القديم

كان وضع الإنسان في الجنة في بادئ الأمر وقبل عصيان الإنسان، حال براءة وتمتّع بمواهب مختلفة، منها عدم التعرّض للمرض والموت (تكوين ٢ : ٩، ١٧) والسكنى في جوار الله الخالق.

## الفصل الثالث

### العالم المُهدّد

تروي قصص النشوء أنّ العالم خلقه الله سليماً. ولكن قرائن نشأته تشير إلى أنّه لا يزال معرضاً لتهديد متواصل. هذه الأخطار تنجم عن العوامل التالية:

- عوامل البلبلة التي تغلب عليها الخالق، لم تفنّ ولم يُصبها الزوال النهائي. فإنّها لا تزال فاعلة تتربّص الفرصة لزعة أسس العالم السليم. لذلك يجب الانتباه لهذا الخطر واتخاذ الوسائل لحماية العالم من تهجمات ومحاولاتها الهدامة.

- إنّ قوَّات العالم نفسه معرضة للنقصان، فتتضاءل مع مرور الزمن، ويجب تجديد مقدراتها.

- الخطر الثالث يتأتّى من تصرف الإنسان، الذي بمساوئه يجرّ نظام العالم إلى التقلقل والتداعي والانهيار.

### عوامل البلبلة

#### ١. قدرات البلبلة المقهورة

(١) كثير من قصص النشوء عند الشعوب تصوّر عمليّة الخلق كصراع بين الخالق وقدرات البلبلة. في نهاية هذا الصراع يتغلب الخالق. فعمليّة الخلق تقوم بانتصار الخالق على عناصر البلبلة التي تقاوم كلّ نظام

واستقرار، فيحرّك هذه العناصر ويقهرها وينتزع منها مادّة الخلق فيصوّرُها وفقاً لتصميم إرادته. وقد يرد في بعض القصص أن قدرة البليّة ممثّلة بتّين بحريّ، يقطّعه الخالق ويستعمل أعضاء جسده ليكون منها أجزاء العالم. ويوصف ذلك بالذبيحة القديمة التي لها مفاعيل خلاقة.

ولكنّ قدرات البليّة لم تُقهر نهائياً. بل هي تحاول تكراراً إفناء العالم وتحويله إلى مادّة عديمة الأشكال، فيمسي العالم غير صالح لأن يكون مسكناً للبشر. بل تكمن فيه من جديد قدرة التدمير والفناء. من هنا تتأتّى الأخطار المحدقة بنظام العالم وديمومة سلامه.

ولنقدّم مثلاً على ذلك قصّة الطوفان من أميركا الجنوبيّة:

هذا الطوفان ليس سببه عصيان البشر وخطاياهم، بل هو مفعول عوامل البليّة:

"كان الناس يعيشون بارتياح، يقطنون في كثير من القرى الجميلة، وينعمون بوفرة الغذاء، ولم يكونوا يفكّرون بأيّ سوء، وكانوا سعداء. كانوا يسكنون على شاطئ النهر الجارف.

وشرع المطر ينزل، بدون انقطاع. مطر في وضح النهار، ومطر في ظلمة الليل. كان المطر يهطل بغزارة دون انقطاع، ولم يكن أيّ إنسان يستطيع أن يتعد عن بيته. كانوا جميعهم مستلقين في أكواخهم. أشعة البرق كانت تنهال، والرعد يدوي. وكانوا جميعهم خائفين، ولبثوا مستلقين. فانفجرت السماء وهبطت وقتلتهم جميعهم. فقضت على كلّ شيء ولم تستثن شيئاً. وتبادلت السماء والأرض منزلهما، فهبطت السماء على البشر وقتلتهم ثم بدّلت السماء اتجاهها وأخذت معها جميع



النفوس التي كانت تسكن في السماء. والآن هي في السماء وهي هناك سعيدة جداً<sup>١</sup>.

(٢) تجاه هذا الخطر الدائم تؤكد معظم الروايات أن قدرات البلبلة في جميع محاولاتها زعزعة نظام العالم وإفناؤه، لا تفوز بالغلبة، بل تبوء بالعكس بالهزيمة. فإنّها، ولو تمكّنت في بعض الأحيان من زعزعة نظام الكون، وزجّ الاضطراب في مسيرته المتناغمة، لا تستطيع أن تفوز بإفناؤه أو تعطيله تعطيلًا تامًّا. فإنّ الله يسهر في عنايته على عمله ويهتمّ بثبوت بقائه، ويضمن أنّه يمكنه دومًا أن يجدّد ظفره على قدرات البلبلة.

### ١ - مثل من أفريقيا

يظهر تّين يتلعّ كلّ ما يعترضه في طريقه، بما فيه أجزاء من الحضارة الماديّة. وتنجو أمّ - أكانت قد ولدت ابنها أو هي لا تزال حاملاً. فولدها يقوم بمكافحة التّين، فيقطّعه وينجّي من بطنه جميع الذين كان قد ابتلعهم، وهم لا يزالون أحياء. فيعيد المخلّص هذا كلّ شيء إلى نظامه القديم، ثمّ ينتخبه المخلّصون سلطانًا عليهم. فهو إذن مخلصّ ينجّي البشر من كارثة شاملة مفردة. ويعيد الأمور إلى نصابها السليم<sup>٢</sup>.

### ٢ - مثل من الهند

الإله الوطنيّ إندرا يُقاتل شيطان الجفاف فريتر.

<sup>١</sup> راجع رقم ١٦٤، ص ٤٠١-٤٠٢ في:

Rudolf Jockel, Götter und Dämonen, Darmstadt 1953.

<sup>٢</sup> Ernst Dammann, Die Religionen Afrikas, Stuttgart 1963, 34

موطن المطر هو السماء العليا. هناك يجلس فارونا على عرشه يدبّر أمر أنظمة الكون. فهو يجعل الفجر ينبج في أوانه، والشمس تطلع وتغيب، والأمطار الغزيرة تهطل على الأرض في أوقاتها.

ونزلت الأمطار محاولة أن تسعى في مجاريها. ولكن شيطان الهواء انقضّ عليها وحبسها في الغيوم. كثيرة شياطين الجفاف وهي لا تني تحاول بلبلة أعمال الآلهة. وقد قامت الآلهة بمصارعتها، حباً للبشر، وتغلّبت على بعضها وقتلت بعضها. ولكن لم يكن هناك من يضاهي الشيطان فريتر في قدرته وتجبره.

أمّا من تصدّى له من آلهة السماء فهو أعلاهم مرتبة، إندرا الإله القدير، والسلطان العزيز، ملك الكون كلّ، ملك الآلهة والبشر، سلطان كلّ ما يحيا ويتنفّس، ويتحرّك ويسكن... بطل هو، بطل من لحم ودم، شاب لا يهرم، غير خاضع للموت.

فتناول إندرا جرعة من عصير السّوما، ورافقته آلهة العاصفة، فبرزوا للهجوم على شيطان الجفاف، وفي يمين إندرا سلاحه المخيف، حربة الرعود. والتقى بخصمه، وهو نائم ولا يبالي، ظانّاً أنّه لا يصيبه جرح ولا يودي به موت. هنا نخره إندرا بسلاحه وهجم عليه بشدّة. كان الصدام مرعباً اهتزّت له السماء والأرض، عندما كان إندرا يهجم بحرّبه، فغادرت الآلهة من خوفها كبيرها، تطاطىء الرأس لتقي نفسها من الأشهب المتطايرة. ولما عاينت أنّ إندرا خاض المعركة وانتصر، عادت تنظر بارتياح إلى المتصارعين.



بقدره شراب الصوما كان إندرا يطير في الفضاء ويصوّب سلاحه ضدّ فريترا. أمّا هذا فكان يلجأ إلى قدرته السحرية ويغلف نفسه بالضباب وينقضّ بكلّ قامته على مهاجمه. ولكن إندرا كشف حيلته وعرف الأشكال المختلفة التي يختبئ فريترا وراءها. وكان يراقب مواضع ضعفه ويصوّب سلاحه إليها، فشقّ جسده، كما يشق البرق الشجرة، وقطّعه إرباً، وقطع رأسه وألقاه تحت حوافر نخيله.

بعد ذلك مضى إندرا إلى الموضع الذي حُبست فيه سيول المياه. فأخذ يقطّع الغيوم، كما يفلق النجار قطع الخشب، حتّى وصل إلى المياه، فأطلقها تنصبّ على الأرض دون أي عائق، ثمّ غادر حلبة القتال بسرعة.

وفريترا ملقى، لا يجرؤ أحد من الشياطين أن يعترض سيره. هذا الصراع لم يحدث مرّة واحدة فقط، بل إنّّه يتجدّد، لتحرير مجاري المياه من قبضة شيطان الجفاف، فيعيد إلى البشر، كما حصل ذلك في بدء الخلق، النور والشمس والفجر. فيكون صراع إندرا موجّهاً ضدّ شياطين الجفاف وضدّ قوّات الظلام<sup>٣</sup>.

## ٢. تنافس آلهة الخلق

تقول بعض قصص النشوء أنّ الخالق كان له منافس يحاول تعطيل عمل الخلق وبلبلة نظام العالم. نورد مثلاً على ذلك ما ورد عند سكان سييريا وفي قصص أميركا الشماليّة.

<sup>٣</sup> راجع رقم ٣٠، ص ٩٧-١٠١ من الكتاب المذكور في الحاشية ١.



## (١) سيبيريا

الخالق نُوم وجُلّق كانا متعاديّين، يتشاجران دومًا. فقال جُلّق: "أنا أقوى منك وأستطيع أن أصنع كلّ شيء". فقال نُوم: "إن كنتَ قادرًا فاخلق الأرض". فأخذ جُلّق وحلاً، فتسرّب من بين أصابعه. أمّا نوم فأخذ وحلاً وضبطه في قبضته، فانسلّ الماء، وبقي في يديه طين جاف. وهكذا تمّ الفصل بين الماء والأرض. فنشأ من الماء البحر والأنهار والينابيع والشلالات والسواقي. أمّا الطين فأصبح أرضاً ييساً. وتروي قصّة أخرى ما يلي:

عندما نزل الله إلى الأرض صادف هناك الشيطان الذي كان يعالج عمليّة الخلق. فحدث شجار بينهما. فالشيطان أراد أن يُبِيد الأرض الذي خلقها الله. فكسر قيثارة الله. فاحتدم الله لذلك غضبًا وقال للشيطان: "إن استطعتَ بأمر منك أن تُصعد شجرة من البحيرة، أعترف لك بالقدرة. وإن قدرتُ أنا على ذلك، فعليك أن تعترف بأنّي كليّ القدرة". فوافق الشيطان على هذا الاقتراح. فأمر الله فظهرت فوراً شجرة من الماء وشرعت في النمو. أمّا شجرة الشيطان فلم تستطع أن تبقى ثابتة، بل كانت تميل يمينًا وشمالاً. وهكذا أقرّ الشيطان بأنّ الله أعظم قدرة منه.

— وإن كان الشيطان قد عجز عن خلق العالم وعن بعث شجرة الحياة، وعن إتيان ما يُبِيد عمل الخالق، إلّا أنّه يجهد في أن يعطل مخطّطات الله في خلقه أو أن يخرّب ما خلقه الله. لذلك يقال عنه إنّهُ

"يقطن تحت الماء". يقطن في الماء، مصدر الخلاق. لذلك نرى القصص تصفه بالزبد الذي يطفو على سطح المياه أو بالفقاعة المائية<sup>٤</sup>.  
 أمّا ما يخصّ تجهيز العالم، فإنّ عمل الشيطان يقوم هنا بأنّه وضع في الأرض حشرات مختلفة منها ما لا منفعة منه، ومنها ما هو ضارّ. وتروي إحدى القصص أنّ الشيطان ضرب بعصاه فأحدث حفرة صعد منها على سطح الأرض طائفة من الضفادع، والجرادين، والديدان، والصراصير، والبعوض، والزلاقط، والفيران. ولم تكفّ هذه عن اجتياح رقع الأرض حتّى تدخل الله فأغلق الحفرة بشهاب من نار.

## (٢) أميركا الشماليّة

في أغلب الروايات يكتسب العالم شكله النهائي نتيجة تنافس بين الكائنين القديمين. أحدهما يتخذ دور خالق العالم والبشر ويبلغ مقام إله متعال، فيما الآخر يظلّ في مرتبة أدنى. وإليك أمثلة على أشكال التنافس بين الكائنين القديمين.

- تروي بعض القصص أنّ الخالق برأ الإنسان، ولكنّ منافسه يصرّ على إدخال الموت في العالم.

- الخالق يصنع الأرض. ولكن ذئب البراري منافسه يجعل الأرض قاسية جبلية. ثمّ إنّ الخالق يحاول أن يجعل عيش الناس على الأرض

<sup>٤</sup> - راجع:

Wilhelm Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, XII, Münster 1955, 14-15.



سهلاً، ولكنّ منافسه يخربّ جميع ما أنعم به الخالق على البشر، ويُفسد حتّى الهضبة التي تحتوي على بحيرة الماء التي كانت مُعدّة لتحفظ الناس من الموت والفناء.

- الحال في هيئة الثعلب الفضّي والمنافس في شكل ذئب البراري، يصنعان بشراً وحيوانات، ويحدّدان مراحل تطوّر الأحوال في الأيام القديمة، ولكنّ الروايات تؤكد تفوّق الخالق على منافسه. أمّا تنافسهما فيظهر في موقف الخالق الذي يصنع كلّ شيء لخير البشر، فيما منافسه يعاكس ذلك. فحين جعل الخالق صيفاً دائماً، أصرّ المنافس على إثبات شتاء طويل. ثمّ لم يكن في البدء موتٌ إذ كان الأموات يستعيدون الحياة. ولكن ذنب البراري أدخل الموت النهائي في العالم.

ولكن الرواية تقول إنّ الخالق غضب في النهاية على منافسه وصرعه قتيلاً. ولكنّ هذا عاد إلى الحياة بعد ثلاثة أيام، فاضطرّ الخالق أن يسايره لإخماد غضبه.

### ٣. الثنائيّة

الثنائيّة تقول بأنّ الكون نشأ بفعل مبدأين متناقضين. وقد سادت خصوصاً في تصوّرات إيران القديمة عن قيام الخلق. فالخالق أهورا مزدا هو مبدأ الخير، وهو صانع "الخلق الصالح". وخصمه أنغرا ماينيو هو مبدأ الشرّ، هو الروح الشرير صانع "الدمار الضاري، والعداوة السلبية المظلمة التي لا تفكر إلاّ بالسوء ولا تفعل إلاّ السوء. فعله مليء بالموت، منطقته لا رجاء فيها ولا فسحة خير.



فتنافر هذين المبدأين يظهران في أنّ صلاحية أحدهما تشمل النور والبناء، فيما يجلب الآخر الشرّ والظلمة والدمار. ولكنّهما كليهما متساويان تقريباً بالقُدرة. ولكنّ الروح الصالح سينتصر في آخر الزمان على منائمه.

### قوى الكون المنهكة

لا يتأتّى الخطر المحدق بالخلق والكون السليم من فعل قوّات البلبلة وحدها، بل هناك تهديد ينبع من الداخل. فإنّ قوى الكون خاضعة للإفناء، فتعاني العجز والتفتّت. هذا يجعل الإنسان يخشى أن يضع ما يضمن نظام الكون الصالح ومجرى الأمور الصحيح، فتعرّض حياته إلى خطر جالب للموت.

### خطر على الكون من جرّاء تصرف الإنسان

هناك نوع ثالث من الأخطار التي تهدّد العالم وحياة البشر، هو تصرف البشر أنفسهم وميلهم إلى الشرّ. تقول كثير من الأديان بأنّ تصرف الإنسان الأثيم له أثره في مجرى العالم، وقد يجرّ العالم السليم إلى مهاوي الدمار. فكثير من الشعوب تعتبر الخلل في مجرى الأزمنة أو الكوارث الطبيعية نتيجة الأخطاء الشريرة.

- أكان ذلك أن الآلهة تنزل العقاب على تعدّيات البشر، أو تغيّر مجرى الطبيعة الموافقة لحاجات البشر وتقتصّ بذلك من المفسدين وجماعتهم.

- أو كان ذلك أن مصير العالم متشابك بمصير الإنسان بحيث يمكن أن ينهار نظام الكون بسبب تصرف الإنسان وخطاياها.

من هنا ما جاء في الكتاب المقدّس من قول الله تعالى بعد سقطة الإنسان في العصيان والخطيئة: "وقال لآدم: إذ سمعت لصوت امرأتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً: لا تأكل منها، فملعونّة الأرض بسببك. بمشقة تأكل منها طول أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء. بعرق وجهك تأكل خبزاً، حتّى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنك تراب وإلى التراب تعود" (تكوين ٣: ١٧-١٩).

## الفصل الرابع

### الفردوس الضائع

ليس عالم النشأة الأولى وحده معرضاً للخطر والدمار. فالإنسان نفسه يجابه عيشة مليئة بالمعاناة. فإنَّ زمان الفردوس ضائع. ثمَّ إنَّ الإنسان هو عينه سبب انهيار العالم انهياراً لا يمكن إيقافه وسيؤدي إلى كارثة نهائية. وهو سبب اصطدام حياة بأكبر المصاعب، دون أن يقيض له الإفلات من مصيره الذي يؤدي به في آخر المطاف إلى الموت. فيسأل الإنسان نفسه عما أدَّى به إلى هذه الحياة، وكيف قاده المسار إلى هذا الوضع.

### عبء النشأة الأولى

لا تتصوّر الأديان كلّها وضع الإنسان لدى نشأته الأولى كحال سعيد وحياة في الفردوس. وحتى عندما تصف الأديان حياة المنشأ كزمان فردوسي، فإنّها تؤكد أنّ الإنسان القديم ما عثم أن فقد بذنبه حياة الفردوس.

#### ١. الشقاء القديم

هناك قصص نشوء تروي أنّ الإنسان في مطلع خلقه كان يعيش عيشة وضيعة جداً، وأنَّ وضعه لم يكن يعلو كثيراً عن وضع الحيوانات.



(١) تروي قصّة من أميركا الشماليّة ما يلي: "تمّ خلق الإنسان. ويُقال إنّه في البدء لم يكن هناك فرقٌ كبير بين البشر والحيوانات. فكانت تستطيع أن تتحوّل إلى بشر، وكان البشر يستطيعون أن يتحوّلوا إلى حيوانات. وكان البشر يمشون على أيديهم، أو كانوا يمشون على سيقانهم الأربع. وفي زمن متأخّر تعلّموا أن يمشوا منتصبين على سيقانهم وأرجلهم...". بعد ذلك استطاع البشر أن ينعموا بأطياب الفردوس<sup>١</sup>.

(٢) نجد في قصّة أخرى من أميركا الشماليّة وصفاً للأحوال الحيوانيّة الأولى عند البشر: "في ذلك الزمان كان البشر والحيوانات أكثر تشابهاً في ما بينهم ممّا هم عليه اليوم. فأجدادنا، آخر ما صدر عن عمليّة الخلق، كانوا لا يزالون سوداً كالكهوف التي خرجوا منها. وكانت أجسادهم باردة تعلوها القشور كالحيوانات التي تعيش في الأوحال، وكانت أعينهم بارزة كأعين البوم، وآذانهم يكسوها الجليد كالوطاويط، وأرجلهم تشبه كائنات تعيش في أماكن رطبة وحرّة. ووفقاً لأعمارهم كانت لهم أذيال طويلة أو قصيرة. وكانوا يمشون منحني الظهر، وكثيراً ما كانوا يزحفون على الأرض كالضفادع والحرادين، أو كأولاد صغار يخافون أن يقفوا منتصبين، فإنّهم كانوا قد اعتادوا مدّة عيشهم في الكهوف أن يمشوا منحني الظهر، مخافة أن يتعثّروا أو يصطدموا بشيء ما في أماكنهم الشاحبة الضياء".

<sup>١</sup> - راجع

Rudolf Jockel, Götter und Dämonen, Darmstadt 1953, n° 105, 289-290.

وتروي القصة كيف اعتاد البشر القدماء أن يعيشوا في الضوء، وكيف تعلّموا أن يمشوا منتصبين، وكيف نموا في العمل والمعرفة وطوّروا ثقافتهم وحضارتهم<sup>٢</sup>.

٣) أمّا في ملحمة غلغامش البابلية فنجد الوصف التالي للرجل القلسم الأول إياباني:

"يرعى العشب مع الغزلان،  
ويقصد مع القطعان المورد ليسدّ جوعه،  
ويرتاح قلبه إلى ما يتحرّك في الماء".

٤) نجد مثل ذلك في أحد النصوص عن نشوء الإنسان عند السومريين:

"إنّ البشريّة، في اليوم الشريف الذي خلقت فيه، لم تكن تعرف غذاءها، ولم تكن تعلم أن تكتسي بالملابس. وكانت الحقول تنبت فيها أنواع القصب، فكان الناس يأكلون العشب بأفواههم، كما تصنعه الخراف".

## ٢. طبيعة الإنسان الملوثة

١) إنّ الشقاء القلسم وتاريخ البشريّة السقيم الذي انطلق منذ البدء واتّسع في حقبات التاريخ يعود في ناحية منه إلى المادّة الحقيرة التي صنّع

٢ - راجع الرقم ١٢٧، ص ٣٣٠-٣٣١ من المرجع السابق.

منها. فإن كان الإنسان، كما ترويهِ بعض قصص الخلق، قد أُخذ من تراب أو من خشب، فهو يحتاج إلى مرّ الزمان لكي يتحوّل إلى إنسان قادر على إبداع الثقافة والحضارة.

(٢) هناك سبب أكثر أهميّة لشقاء الإنسان، وهو تلوّث طبيعة الإنسان منذ القِدَم. تروي قصص مختلفة أنّ الخالق صنع الإنسان من أعضاء تنين قهره في صراعه ضدّ قدرات البلبلة. فيكون الإنسان منذ مطلع تاريخه مرتبطاً بالصفة الغوغائيّة التي تطبع المادة التي أُخذ منها. وإنّ بعض قصص النشوء تقول بأنّ المادة التي صُنِع منها الإنسان هي دم مارِد أثيم، عاقبه الخالق على عصيانه فقطّعه أو قتله، واستعمل أجزء جسده أو دمه في عمليّة خلق الإنسان. فطبيعة الإنسان ملوّثة منذ البدء.

- عمليّة خلق الإنسان في قصّة عند البابليين:

قدم مردوك، الإله المنتصر على قدرات البلبلة، إلى إيا يعرض عليه فكرته في خلق الإنسان لأخذ الموافقة. وكانت الآلهة المهزومة قد اشتكت أنّه لم يعد هناك من يقدّم لها القرابين والذبائح ويقوم بخدمتها، وأنّ المصير المحدّد لها والآيل بها إلى الفناء ثقل باهظ، فطلبت أن يحمل الإنسان عنها هذا المصير. ووافق الإله إيا على هذه الخطّة. ولكنّه اشترط أن يهلك أحد الآلهة. فوقع الأمر على كينغو، زوج تيامت الذي حثّ على القتال ضدّ صفوف مردوك. وقيد الآلهة كينغو. وقطعوا شرايينه، فصنع إيا من دمه البشريّة، وفرض عليها أن تقوم بخدمة الآلهة.



- تروي إحدى قصص اليونانيين القدماء أن المردة اختطفوا ابنا لكبير الآلهة زوس، يُدعى ذيونييسيوس زغرويس، الإله الأعظم، فقطعوه وابتلعوه. فأهلك الإله المردة بصاعقة وأحرقهم، ومن رمادهم خرج البشر. فطبيعة هؤلاء مزيج من الخير الناجم عن بقية ابن الإله في رماد المردة، ومن الشرّ النابع من آثام هؤلاء المردة. من هنا الفكرة القائلة بأن الإنسان يجب أن يتم خلاصه بالهزب مما عنده من أثر المردة، والحفاظ على ما عنده من أثر ابن الإله. فالجسد هو من ثمّ قبر النفس وسجنها، تلك النفس التي تحنّ إلى الإفلات والبلوغ إلى الآخرة.

## ضياع الفردوس

### ١. الخطيئة القديمة والسقطة الأولى

إنّ قصص الأديان تحدّث عن خطيئة قديمة حدثت في بدء التاريخ. فبسقطة الإنسان ضاع الفردوس. وهذه السقطة توصف إجمالاً بأنها معصية الله واستكبار على وصية الله. أحياناً لا يُذكر تمرّد خاصّ ضدّ وصية معيّنة أو نهي معيّن، بل يُقال على سبيل الإجمال إنّ الإنسان ارتكب خطيئة ضدّ الله.

ويكون جواب الله على عصيان البشر أنّه يعاقب المذنبين وينزع منهم نعمته، ويطردهم من الفردوس، أو بعبارة أخرى، يتعدّد هو عنهم.

وأحياناً تُعتبر الخطيئة الدافع المباشر لإطلاق الطوفان جزاءً لمعصية البشر. فالطوفان يكون عقاباً لخطيئة الإنسان، ولكنّه لا يتبع دوماً مباشرة بعد سقوط الإنسان في المعصية، بل يجلبه الله على البشر في زمن لاحق. كما جاء في الكتاب المقدس (راجع تكوين ٦ : ٥-٧). والطوفان هو عقاب الخطيئة، ولكنّه في الوقت نفسه سبيل لخلق عالم جديد، بنظام وثيق، يمكن الإنسان من القيام بانطلاقة جديدة. وإليك أمثلة على هذه المقولات من تراث الأديان.

### (١) الخطيئة والعقاب

نورد هنا القصص التي تذكر الخطيئة والعقاب، دون أن يتخذ هذا العقاب شكل الطوفان.

#### ١- من أفريقيا

- رواية أحد الأقزام: "في البدء كان مُغازا. خلق البشر، وعاش مع أولاده البشر الثلاثة الأولين، وكانوا رجلين وأختهم. ولم يكن البشر يعانون الضيق ولا يهابون الموت. وكان الله في ما بينهم، يخاطبهم كما يخاطب الأب أولاده. ولكنّه أوصاهم بأن لا يتجسّسوا عليه. فبقي خفياً عليهم، يعيش في كوخ كان على الفتاة أن تضع كلّ يوم على بابه إناء ماء وخشباً للحريق. ذات يوم اختبأت لشدة فضولها وراء شجرة لترى "الأب". فعينت ذراعه المزين بأساور برّاقة، عندما مدّه مُغازا إلى إناء الماء. ففرحت لهذا، دون أن تنبئ عن ذلك. ولكن الله كان قد شعر بذلك. فدعا أولاده، البشر الثلاثة، إلى عنده وأنبههم على عصيائهم.



وحصل ما كان قد هدّدهم به، ولم ينفع نحيبهم شيئاً. وذات ليلة ذهب الله وابتعد باتجاه مصعد النهر، ولم يُرَ من بعد ذلك قطّ. لذلك حلّ الضيق، وحلّ الموت.

- تروي قصّة أخرى أنّ الله خلق الإنسان الأوّل يائسي بمساعدة القمر، ووضعته على الأرض. جبل جسده من طين، ومدّ حوله جلدًا وصبّ دمًا في جوفه. فلمّا أخذ الإنسان الأوّل يتنفس همس الله في أذنه: ستجب أولادًا يقطنون في الغاب. أخبر أولادك بوصيتي، وليخبروا هم بها أولادهم: لكم أن تأكلوا من جميع أشجار الغاب، ما عدا شجرة الطاهو.

وأنجب يائسي، الإنسان الأوّل، أولادًا كثيرين، وأوصاهم بحفظ أوامر الله، ثمّ صعد إلى عند الله في السماء. وحفظ البشر وصيّة الله حتّى ذلك اليوم الذي تاقت امرأة حامل توقًا جموحًا إلى أكل ثمرة الطاهو الكبيرة الجميلة. ولكنّ زوجها مانع. أمّا المرأة فأصرّت بإلحاح كبير، ممّا حمل الزوج على التسلّل إلى الغابة وقطف ثمرة من شجرة الطاهو. فقشّرها خفية وخبأ القشور بحرص كبير وهو يعود راجعًا، خوفًا من أن ينكشف سرّه من جرائها. ولكنّ كلّ اهتمامه لم يَفِدْه شيئًا، فإنّ القمر كان قد عاينه وأخبر الله قائلاً: إنّ البشر الذين خلقتهم تعدّوا وصيتك وأكلوا من ثمرة الطاهو. فغضب الله لعصيان البشر فأنزل عليهم الموت عقابًا لهم.<sup>٣</sup>

<sup>٣</sup> P. Schebesta (ed.), Ursprung der Religion, Berlin 1961, 115-116



## ٢- من أميركا الجنوبية

في الزمن القديم كان الناس سعداء، وكان يوروكُن أحد أرواح الغابة يتردد غالباً على البشر ويخالطهم ويشرب معهم النبيذ. ذات يوم جاء إليهم بصورة امرأة ترضع ولداً، فقُدّم لها مأكّل من قدر الفلفل، فكاد فمها يلتهب. وإذا لم يكن لدى مضيفتها ماء لتسقيها، تركت ولدها وذهبت إلى النهر لتسكّن عطشها. ولكنها عندما عادت، لم تجد طفلها، فبحثت عنه عبثاً. ففي غيابها كانت امرأة شريرة قد أتت ورمّت بالطفل في القدر. وعندما حرّكت المُرّض القدر ظهر جسد رضيعها. فجهشت بالبكاء، والتفتت إلى الناس من حولها وقالت: لماذا فعلتم بي هكذا؟ ما نويت يوماً بكم شراً. أمّا الآن فسوف تنالون عقاب فعلكم. أولادكم سيموتون وأنتم ستبكون وتنوحون عليهم، كما أبكي أنا الآن. وعند ولادة أطفالكم يكون الوجع والضيق نصيب النساء اللواتي يلدن. وأنتم، أيّها الرجال، ستعانون الشدّة عندما تخرجون لصيد الأسماك.

قبل ذلك كان الرجال يمشون إلى شاطئ النهر فتتجمع عندهم في قعر الماء جميع الأسماك، فيلتقطونها. ولكننا اليوم نعاني كثيراً عندما نرش السمّ في الأحواض لنقتل الأسماك فنستطيع التقاطها. أمّا المرأة الشريرة التي اقترفت الذنب ورمّت بالطفل في القدر، فقتلها يوروكُن<sup>٤</sup>.

<sup>٤</sup> راجع الرقم ١٧١، ص ٤٢٢-٤٣٢ من الكتاب المذكور في الحاشية ١.

## (٢) الخطيئة والطوفان

إنَّ إحدى قصص النشوء من ميلانيزيا تربط بين خطيئة الإنسان القديمة وعقاب الخالق للإنسان بإرسال الطوفان.

تصف الراوية أولاً الوضع القديم الهنيء، إذ كانت الحيّة العظيمة تسكن في جبل أهدت جوانبه القبيلة التي اختارتها وأغذقت عليها الهبات من أمن، ومعرفة وحكمة، وهناء وسلام. وكانت الحيّة العظيمة تأوي كلَّ ليلة إلى مغارة تنام فيها. وكانت، إن هي أغمضت عينيها، نشرت الظلمة في الفضاء، فيقول الناس: قد أقبل الليل. وإن هي تحركت في نومها، اهتزّت الأرض، فيقول الناس: هذا زلزال. وإن فتحت عينيها عند الصباح، غابت الظلمة، فيقول الناس: قد انبلج الصباح.

وكانت للحيّة العظيمة حمامة سوداء جميلة، توقظها كلَّ صباح. وكانت الحمامة تنام على تينة عند مدخل المغارة. وعند الفجر كانت ترسل نداءها وتوقظ الحيّة العظيمة. فتنهض هذه وتنادي الناس من حول جبلها: "يا أولادي، انهضوا وبادروا إلى العمل، فقد حلَّ الصباح".

أمّا شيخ القبيلة وأخوه فكانا يكرهان الحمامة، إذ إنّهما كانا متعجرفين، لا يرغبان في العمل ويفضّلان الراحة على تعب الجهد، ويتركان الأشغال المضنية لعبيدهم وخدامهم. فعزما على قتل الحمامة. فصوّب الشيخ سهمه إلى الحمامة على مدخل المغارة وأرداها قتيلة. ثمَّ هرب هو وأخوه إلى المدينة.

فلما نهضت الحيّة العظيمة من سباتها وخرجت إلى باب المغارة، رأت الحمامة طريجة ميتة والسهم غارقاً في صدرها. فحزنت كثيراً لفقدانها، ثمَّ



التفتت إلى بقاع القبيلة وصرخت إلى جوانب المدينة: "الويل لك، يا شيخ القبيلة. الويل لكم جميعًا. إنكم قتلتم حمامتي. فالآن سأنتزع ملككم منكم وأعطيته لآخرين. وأنتم ستفرقون في شعوب الجزر وتكونون أرقاء لسكانها.

فأجاب سكان المدينة من جانب الوهاد: آيتها الحية العظيمة، نحن لا نهابك، نحن شعب كبير وأنت وحدك، ولو كنت إلهة. تعالي نتبارز. فسوف يلحق بك ما لحق بحمامتك.

ثم بنوا سدًا عظيمًا منيعًا، عاليًا وعريضًا. فجعلت الحية قهزاً بهم وتقول: ابنوا سدكم واجعلوه منيعًا، واجعلوا علوه يقارب السماء. ولكن ويلكم، عدوكم هو إله.

أما الناس فسخروا من الحمامة. متكئين على عددهم وعلى سدّهم. وعندما انتهوا من البناء، صرخ شيخهم باتجاه الحمامة: لقد انتهينا، فتعالي نتقاتل، لكي يحدث أولادنا في ما بعد أن أجدادهم قضوا على الحية العظيمة.

فاحتدم غضب الإلهة ورمت مطرقتها عاليًا إلى جوف السماء. فانفجرت الغيوم، وانصبّ طوفان مخيف على الأرض. ولبث المطر يهطل أيامًا كثيرة جدًّا، وينهمر بشدة حتّى إن البحر ارتفعت أمواجه فغطّى الماء البقاع كلّها. وما زال سطح البحر يرتفع حتّى جرف السدّ والمدينة وسكانها جميعًا.



ولكنّ عددًا غير ضئيل من السكّان تمكّن من تسلّق الأشجار وركوب الزوارق والسفن، وتفرّقوا على قمم الجبال، حيث كان الناس قد التجأوا إليها.

ولما عادت المياه إلى وضعها المعتاد اصطحبهم سكّان البقاع الآخرون واتّخذوهم عبيدًا يقومون بخدمتهم.

### ٣. العهد القديم من الكتاب المقدّس

١- في جنة عدن صدرت وصيّة الله لآدم وحواء:

"وأمر الربّ الإله الإنسان قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل. وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها. فإنّك يوم تأكل منها تموت موتًا" (تكوين ٢: ١٦-١٧).

ولكنّ الحيّة جرّت الإنسان بحيلة إلى المعصية: "قالت للمرأة: أيقينًا قال الله: لا تأكلا من جميع شجر الجنة. فقالت المرأة للحيّة: من ثمر شجرة الجنة نأكل. وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمسّاه كيلا تموتا. فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا. إنّما الله عالم أنّكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشرّ. ورأت المرأة أنّ الشجرة طيبة للمأكل وشهيّة للعيون، وأنّ الشجرة منية للعقل. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت بعلمها أيضًا معها فأكل" (تكوين ٣: ١-٦).

عرف الإنسان أنّه قد تعدّى أمر الله فحاول أن يختبئ من وجهه.

٢- أمّا عقاب الله فأصاب الحيّة، إذ إنّ الله لعنها (تكوين ٣: ١٤).  
ثمّ التفت إلى المرأة وقال لها: "لأكثرن مشقّات حملك، بالألم تلدين  
البنين وإلى بعلك تنقاد أشواقك، وهو يسود عليك" (٣: ١٦).  
وقال لآدم: إذ سمعتَ لصوت امرأتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك  
قائلاً: لا تأكل منها، فملعونّة الأرض بسببك، بمشقةٍ تأكل منها طول  
أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء، بعرق  
وجهك تأكل خبزاً، حتّى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنّك  
تراب وإلى التراب تعود" (٣: ١٧-١٩).  
وانتهى الأمر إلى أنّ الله أخرج الإنسان من الجنّة (٣: ٢٣-٢٤).

## ٢. تدهور أوضاع العالم والإنسان

تروي قصص النشوء كيف ساءت أوضاع العالم والبشر بعد السقطة  
الأولى وانتشر الشرّ بين الناس، ممّا أدّى إلى غضب الله، فجاء الطوفان  
وجرف البشر أجمعين. ولم ينبجُ منه إلّا بعضهم، فنشأت من هؤلاء  
بشريّة جديدة<sup>٥</sup>.

(١) هناك طوفان جزئيّ لا يلحق إلّا بأرض المذنبين.  
نورد مثلاً من أفريقيا.

<sup>٥</sup> هناك قصص عن الطوفان لا تربط بينه وبين شرّ البشر: راجع مثلاً الكتاب المذكور في الحاشية  
١: رقم ١٥٤ (ص ٣٨٨-٣٨٩)، رقم ١٦٤ (ص ٤٠١-٤٠٢)، رقم ١٧٩ (ص ٤٣١-٤٣٢).

"في البدء صنع الإله مقيلاً قرية عظيمة. وكان الناس فيها لا يأكلون سوى الحساء. فسئمت أنفسهم ذلك، وطلبوا أن يحصلوا على لحم ليأكلوه. فهبط إليهم الإله عند غروب الشمس في ضجة شديدة، وقال لهم: لقد اصطدت لكم ظبية، فاذهبوا غداً إلى موضعها. فذهب الناس إلى هناك ووجدوا ظبية طريجة. فأراد بعضهم أن يأكلوا فوراً من لحمها، ورأى آخرون أنه يجب الانتظار. وقال آخرون: لننصب أشراكاً ونقبض على عدد أكبر من الغزلان.

وأكلوا جميعهم، ما عدا فتى وفتاة. أمّا الذين أكلوا فحلّ بهم مرض الجُدري وماتوا. أمّا الفتى والفتاة فلم يأكلا ولم يلحق بهما أذى. ولما حلّ الليل انهمر مطر شديد وملاً الأرض ماء. وعلق الناس يسبحون في الماء. وعابنوا زورقاً يعوم على سطح الماء. وفجأة هبط الماء، فكان أن الناس قضوا نحبهم جميعاً وأنّ قريتهم قد لحقها الفناء. ثمّ انحطّ الزورق على الأرض وتحطّم<sup>٦</sup>.

(٢) وهناك طوفان عامّ ينال البشرية المذنبة جمعاء.

١- من أميركا الجنوبيّة

كان الخالق قد أوصى البشر أن يعيشوا في الوئام، وأن يعرفوه ويخدموه. ثمّ أعطاهم الأوامر ليحفظوها، وهدّدهم بالعقاب إن هم تعدّوها. وقد حفظ البشر مدّة من الزمن أوامره. ولكن الكبرياء والجشع

<sup>٦</sup> - رقم ٢٠٠، ص ٤٥٨-٤٥٩ من الكتاب المذكور في الحاشية ١.



نشطا فيهم، فتعدّوا وصاياهم وأثاروا غضبه. فأفنى الخالق الناس المذنبين ولعنهم. فتحوّل بعضهم إلى حجارة أو غيرها من الأشياء، وابتلعت الأرض بعضهم، وغاب بعضهم في لجّة البحر. وأرسل إليهم إلى ذلك طوفاناً عظيماً شملهم جميعاً. هطل المطر، كما يُقال، ستّين نهاراً وستّين ليلة، بحيث غرق كلّ مخلوق عقاباً على ما جرى وتنبهها صارماً للأجيال اللاحقة.

أمّا الخالق فقد احتفظ بثلاثة رجال، يخدمونه ويعينونه على خلق أجيال جديدة من البشر. فإنّه كان قد قرّر أن يعيد إسكان البشر على سطح الأرض.<sup>٧</sup>

## ٢ - من قصص السومريين والأكدّيين

في اللوحة الحادية عشرة من ملحمة غلغامش وصف للطوفان، نجد مقابلاً له من بعض نواحيه في رواية العهد القديم من الكتاب المقدّس عن الطوفان.

كانت الآلهة قد اتّخذت قراراً بمحو مدينة شوريال من سطح الأرض. وكان يقطن فيها رجل صدّيق يُدعى أُنّايشْتيم. فعزم إله السماء أن ينجّيه من الغرق، فأوعز إليه بطريقة غير مباشرة أن يترك ماله ومتاع مسكنه وينجو بنفسه. ولقّنه أوصاف السفينة التي عليه أن يبنّيها ويدخل فيها طائفة من الكائنات الحيّة.

<sup>٧</sup> - راجع رقم ١٥٣، ص ٣٨٣ من الكتاب المذكور في الحاشية ١.

ثمّ تلبّد الجوّ وهبّت العاصفة فوق المدينة والأرض من حواليتها. وتلبّدت في السماء الغيوم السوداء الثقيلة، وجعل الرعد يهدر في أرجاء السماء، والبرق ينقضّ على البقاع. وهدر موج البحر وارتفع عاليًا من حول المدينة وطاف في أرجائها. ولم يكن من مفرّ للبشر الذين حاولوا الإفلات.

بقيت العاصفة تقضي على كلّ شيء ستّة أيّام وستّ ليال. ولم تهدأ إلاّ في اليوم السابع، وبدأ البحر يتراجع. ولما فتح أتنابشتيم نافذة في فُلّكه، دُعر من شدّة الصمت السائد وعلم أنّ البشريّة كلّها قد غرقت وتحوّلت إلى طين.

وفي اليوم الثامن برزت قمّة جبل، وكان الفلّك قد رسى هناك. فأطلق أتنابشتيم حمامة، لم تلبث أن عادت إليه. فعلم أنّ الأرض لم تحفّ بعد. ثمّ اطلق أخيرًا غرابًا، فلم يعد، فعلم أتنابشتيم عند ذلك أنّ الأرض أضحت جافّة. فخرج هو وذووه من الفلّك، وقدم للآلهة محرقات بخور من القصب وخشب الأرز والمرّ.

في آخر المطاف أخذ الإله إيا أتنابشتيم وباركه وقال: "كان أتنابشتيم قبلاً إنسانًا لا غير. فمن الآن فصاعدًا سيكون هو وامرأته مساووين للآلهة، ويسكنان في مصبّ النهرين<sup>٨</sup>.

٣- قصّة الطوفان في العهد القديم من الكتاب المقدّس

نسرد هنا بعض المقاطع من الفصول ٦ إلى ٨ من سفر التكوين:

<sup>٨</sup> - راجع الرقم ١١، ص ٤٣ - ٤٦ من الكتاب المذكور في الحاضيّة ١.



- ورأى الرب أن شرّ الناس قد كثر على الأرض وأن تصوّر أفكار قلوبهم إنما هو شرّ في جميع الأيام... فقال الرب: أمحو الإنسان الذي خلقتُ عن وجه الأرض، الإنسان مع البهائم والدبابات وطيير السماء، لأنّي ندمتُ على خلقي لهم. (٦: ٥، ٧).

- فقال الله لنوح: قد دنا أجل كلّ بشر بين يدي، فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً، فهاءنذا مُهلكهم مع الأرض... وهاءنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كلّ جسد فيه روح حياة من تحت السماء، وكلّ ما في الأرض يهلك. وأقيم عهدي معك، فتدخل التابوت أنت وبنوك وامراتك ونسوة بنيك معك، ومن كلّ حيّ من كلّ ذي جسد اثنين، من كلّ تُدخل التابوت لتحيّا معك، ذكراً وأنثى تكون... (٦: ١٣، ١٧-١٩).

- وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض... في ذلك اليوم تفجّرت عيون الغمر العظيم، وتفتّحت كوى السماء... وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة... فهلك كلّ ذي جسد يدب على الأرض... والناس كافّة. كلّ من في أنفه نسمة حياة من كلّ من في اليبس ماتوا... وتعاضمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً (٧: ١٠، ١١، ٢١، ٢٤).

- فأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه، وانسدّت عيون الغمر وكوى السماء، واحتبس المطر من السماء... وأطلق (نوح) الغراب فخرج وجعل يتردّد إلى أن جفّت المياه عن الأرض. ثمّ أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد



الحمامة مستقرًّا لرجلها، فرجعت إليه إلى التابوت... ولبت أيضًا سبعة أيام أخر، وعاد فأطلق الحمامة من التابوت. فعادت إليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء. فعلم نوح أن المياه قد جفّت عن الأرض (٨: ١، ٧-٩، ١٠-١١).

- فخرج نوح وبنوه وامراته ونسوة بنيه معه، وجميع الوحوش والدبابات والطيور... خرجت من التابوت. وبني نوح مذبحًا للرب، وأخذ من جميع البهائم الطاهرة، ومن جميع الطير الطاهرة فأصعد محرقات على المذبح. فتنسّم الرب رائحة الرضى. وقال الرب في نفسه: لا أعيد لعن الأرض بسبب الإنسان، بما أن تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حدثته، ولا أعود أهلك كلّ حيّ كما صنعت (٨: ١٨-٢١).

### (٣) خاتمة

١- الطوفان عقاب لخطيئة الإنسان وفساده. ولكنّ الله يجد وسيلة لإنقاذ العالم والبشريّة من الانقراض التام. فإمّا يكون هناك أناس صالحون، أو يكون أنّ الله لا ينوي إبادة البشر جميعهم. على كلّ حال لا يحدث هناك هدم كامل ولا إبادة كليّة، فيبقى بعض من الناس يكونون بدءًا لبشريّة جديدة.

٢- ويعني الطوفان أنّ الأرض الهرمة وأجيال البشر القديمة تُرجع في الماء إلى الوضع المُبهم القديم، لكي ينهض من هذا العنصر الذي يُهلك كلّ شيء ويحتوي في الوقت عينه على جميع بذور الحياة، جيل بشريّ جديد.

٣- وقد تكون فائدة الطوفان مع إمكانية تحديد الكون والبشرية أن العالم والخلقة لا تخضعان بلا رجعة إلى التدهور والانحلال، ولا تطغى عليهما نهائياً عوامل الشر والإثم. فالغوص العنيف في غمرة المياه تساهم في تنقية الخلقة من الإثم وفي إعادة بناء بشرية جديدة<sup>٩</sup>.

---

<sup>٩</sup> - هذا رأي العالم الكبير:

Mircea Eliade, Die Religionen und das Heilige, Salzburg 1954, 244-245

## الفصل الخامس

### تجديد العالم

إنَّ الطوفان يُعدّ غالبًا في تراث الأديان عقابًا لخطيئة البشر وشروهم. يقوم بتدمير العالم وإفناء الناس. ولكنَّ الطوفان هو أيضًا وسيلة لكسب بدء جديد واستعادة الزمن الخلاق القويم.

في بعض الروايات يدهم الطوفان الجيل الأوّل من البشريّة. بعد ذلك يسري مجرى التاريخ دون كوارث كونيّة حتّى الواقعة الكبرى في آخر الزمان. هذا ما عبّر عنه كلام الله إلى نوح بعد انتهاء عمليّة الطوفان: "وقال الربّ في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضًا بسبب الإنسان، بما أنّ تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حدثته، ولا أعود أهلك كلّ حيّ كما صنعت. وأبدًا ما دامت الأرض فالزراع والحصاد، والبرد والحرّ، والصيف والشتاء، والنهار والليل لا تبطل" (تكوين ٨: ٢١-٢٢).

ولكنّ هناك في تراث الأديان تصوّرات تصف كوارث كونيّة تتكرّر في حقبة معيّنة، تنقّض على الأرض، فتكون منطلقًا لبدء جديد تعود فيه الأوضاع كما كانت عليه عند بدء الخلق. هذا تصوّر تتابع حقبة الزمان ودورتها.

وهناك تصوّر عن إمكان تجديد العالم واستعادة البدء القديم الخلاق، وذلك بواسطة طقوس وشعائر دينيّة، أو بواسطة عمل أشخاص مؤهلين لذلك، يدعون مخلصًا أو ملكًا...



أخيراً هناك رجاء الأديان أن تكون القارعة في آخر الزمان منطلقاً لاستعادة خلق العالم.  
سنتوسّع في عرض هذه التصورات ونقدّم أمثلة عليها مستقاة من تراث الأديان.

### دورة حقبة الزمان

إنّ نظريّة دورة حقبة التاريخ تذهب إلى أنّ حركة الكون تجري في دورة حقبة متتابعة تنتهي إلى تدهور أوضاعه، ثمّ تستعيد حقبة البدء السليم للانطلاق في دورة جديدة، وهكذا إلى ما لا نهاية له. فكأنّها صورة لأوضاع الطبيعة الدائرة بين الحياة والموت مجدّداً. ولنا في الهندوسيّة عرض واضح المعالم لمثل هذه الدورة لحقبة الزمان<sup>١</sup>.  
دورة الزمان لها أربع حقبة: العصر الذهبيّ ومدّته أربعة آلاف سنة، وتليه حقبة بدء الانحطاط ومدّتها ثلاثة آلاف سنة، تليها حقبة الانهيار ومدّتها ألفا سنة، وتغشى العالم الحقبة الأخيرة، حقبة الدمار ومدّتها ألف سنة. ثمّ هناك مدّة بدء الحقبة ومدّة نهاية الحقبة، وكلّ واحدة منهما تدوم ألف سنة، فيكون مجموع دورة حقبة الزمان اثني عشر ألف سنة. أمّا في الزمان المتأخّر فقد تغيّر مفهوم السنة وعودت بسنة الآلهة التي

<sup>١</sup> - راجع في ذلك العرض المفصّل في:

Emil Abegg, Der Messiasglaube in Indien und Iran, Berlin - Leipzig 1928, 5-39.

تبلغ مدتها ٣٦٠ سنة من سني البشر. وهكذا يمتدّ طول كلّ حقبة إلى أبعاد جسيمة.

### ١. العصر الذهبيّ

يوصف العصر الذهبيّ بأنّه عصر السعادة العليا والكمال الأخلاقيّ، واتباع الوصايا المسلكيّة وفقاً للقوانين البراهمانيّة.

(١) تصف ملحمة ماها بهارتا العصر الذهبيّ بأنّه كمال مطابقة الناموس، فيه تمّ كلّ شيء، ونجح كلّ شيء، وذلك بدون جهد وعناء. لم يكن فيه مرض ولا تهافت قدرة الحواسّ، ولا تأفف ولا تأوّه، ولا تعجرف ولا سلوك عدوانيّ، ولا ميل إلى الشرّ، ولا خوف من الألم. فيه كانت الكائنات جميعها سعيدة وعادلة. فلم يكن الإنسان يتعرّض لأخطاء الأميال، بل كان البشر جميعهم راضين، مخلصين، لا ينطقون بالكذب، بل يتكلّمون بالحقّ ويرعون في مختلف العلوم. كانت لهم قوّة شديدة، وشجاعة مقدام، وحكمة، ومجموع الفضائل، وجمال الطلعة.

كانوا طوال القامة، ينعمون بشباب دائم وتبلغ أعمارهم إلى مئة ألف سنة. لم يكن فيهم من يجذّف على الآلهة، ويشتم البراهمة والحكماء، ولا من ينفخهم العُجب بالنفس، بل كلّهم يفرحون بما ينعم به الآخرون ويتمنّون لهم الهدوء والسعادة. ومثل ذلك متوفّر في الطبيعة، فتتج الأرض زرعاً وافراً وتنشر في النواحي الحجارة الثمينة.

## ٢. حقبة الانحطاط والانهيار

مع دورة الزمن تسرّبت الخطيئة إلى الكائنات، وتفاقت الأهواء الشريرة واستشرى النزاع، وتقلّصت قوى البشر الفعّالة وبدأت العناصر المعادية تتسلّط على البشر، وتحطّم أحوال سعادتهم. "فتنهار الأشجار التي كانت تؤتي ثمرها في حينه والموادّ الضرورية للألبسة، وذلك لأنّ البشر امتلأوا من الحسد والأنانية. والنساء تمتدّد دورة حيضهنّ إلى آخر العمر فيلدن أولادهن جسدّيّاً، لا روحياً كما كان الوضع في العصر الذهبيّ. ويخضع البشر للفناء والموت. ولسدّ العوز يقوم البشر بمختلف المهن وألوان الزراعة، ويهجر بعضهم هرباً من عداء الآخرين إلى الجبال العالية والوهاد والصحارى.

## ٣. حقبة الدمار

تدهور أحوال البشر وانهيار أوضاع عالمهم يفضيان إلى حقبة الدمار الأخيرة. وكلّما زادت أحوال البشر سوءاً انعكس ذلك على وضع العالم وانتشرت علامات الدمار، كما أنّ سعادة البشر وازدهار العالم متامسكان في العهد الذهبيّ، كذلك يكون أمر البشر والعالم في آخر حقبة من دورة الزمان.

### (١) تفاقم الانحطاط

١- فصول السنة تنعكس، ويسود في العالم الجفاف وتنهال عليه الويلات، والناس تدهمهم المخاوف من تفشّي الجوع. فتصير بقاع



واسعة قفراً، وتربض الحيوانات الضارية والطيور الجوارح في أزقة المدن، وتتسلل حتى إلى باحات الهياكل. ويهيم أكثر الناس بدون غذاء ولا ملابس ولا ملاجئ. تتضاءل قوتهم، وتتقلص قاماتهم، وتقصر أعمارهم، فلا يتعدى الواحد منهم العشرين سنة. ويتفشى المرض والجوع والجفاف والموت.

٢- وتتقلص عند الناس بصائرهم، هائمين في شرّ قلوبهم، مستسلمين للكفر ومتدهورين لذلك في مهاوي الموت.

٣- ويسود لدى الناس الكفر والظلم وفساد الأخلاق، فيهملون الكتب المقدسة والذبايح والعطايا والتزام القانون. وإن التزموا الشرائع أفسدوها باستخدامهم لها في سبيل مصالحهم الأنانية أو لجرد الرثاء.

٤- ولا يُقيمون للشرائع والأحكام قيمة، ولا يقدمون الحماية لأحد، فيهدّد بعضهم بعضاً ويعيشون جميعهم في حالة خوف. وتنحلّ روابط الأخلاق، فيتبع كلّ واحد هواه، ولا يسمع أحد لكلام الآخر، ولا يهتمّ الناس إلاّ للمال وللکسب. جميعهم كذّابون، ظالمون، حُساد، يتبعون أهواءهم الخسيسة. فالأبرار من بينهم لا يعيشون إلاّ فترة قصيرة ويلبثون فقراء، أمّا الظالمون فينعمون بالغنى والهناء.

٥- وتنحلّ روابط الأسرة، فيخضع الرجال للنساء، وتهيم النساء بمعاشرة الرجال، لا تمهداً لهنّ شهوة، ولا لتحلّين بالحشمة، بل ينهمكن بالملاذ ويسعين وراء إشباع النهم.

## (٢) الدمار

١- في نهاية حقبة الدمار تبلغ آلام العالم ذروتها، يحصل الانهيار العام. ويهرب البشر من ظلم الملوك وجشعهم ومن اضطراب أحوال الطبيعة، ويلجأون إلى بقاع خالية من السكان. وفي آخر هذه الحقبة يسود الجفاف سنوات عديدة، وتنهار قوى الكائنات الحية.

٢- وتتراعى علامات الدمار فيلتهب الأفق، والنجوم تفقد ضياءها، ومنازل السيارات في الفلك تُبنى بالشر، وتتساقط من السماء الشهب المرعبة، وتظلم الشمس. ثم تظهر سبع شمس في السماء فتجف جميع مياه الأنهار والبحار، وتحترق أجناس الخشب كلها، ويتحول العشب إلى رماد. ثم تنقض نار حريقة الكون، وقد أشعلتها رياح صاحبة، على الأرض التي أيسستها حرارة الشمس، وتشققها وتحرقها إلى باطنها حتى طبقة الكون السفلى، فيتسلط الهلع على الآلهة والشياطين. هذه "نار الزمان" التي تُفني الكون، فتحترق طبقة الكون السفلى والأرض والجو وعالم الآلهة وتصير رماداً.

٣- أخيراً تتلبّد غيومٌ هائلة في السماء، وتنطلق منها البروق، فتَهطل الأمطار وتغطي وجه الأرض كلها وتطفئ حريقة الكون. ويدوم انهمار الأمطار اثنتي عشرة سنة، ثم يطفو ماء البحر على شطآنه وتنهار الجبال، وتغور الأرض في الأمواج المتراكمة. فيسود الدمار إلى أن يفنى كل جنس البشر.

بهذا يكون العالم قد هوى وعاد إلى وضعه الأوّل قبل نشوء الخلق. ومن ثمّ يمكن أن يحصل خلق جديد للعالم وللشّرع.

#### ٤. الخلق الجديد

(١) هنا يتدخّل الإله براهما، وتعود الأوضاع إلى أحسن أحوالها كما كانت في بدء العصر الذهبيّ. وتزيد بعض النصوص أن الإنسان قد ساهم في انطلاق خلق جديد، إذ إنّهُ يحصل في أواخر عهد الدمار تحوّل في تصرّف البشر. فعندما يبلغ الشرّ والانحطاط ذروتهما في أواخر حقبة الدمار، يسأم الناس فسادهم ويهجرون الإثم، وتبتعد مساعيهم عن مساوئ العالم. ويكفّون عن نصب الحبال بعضهم لبعض، وتحوّل أفكارهم إلى الاستماع إلى كلام الخير. ويكتمل فيهم العكوف على شرائع الخير، فتحصل جميع الخلائق على الخلاص.

(٢) عموماً يُنسب طور العودة إلى العصر الذهبيّ إلى ظهور كلّكي، وهو تجسّد للإله فيشنو، فيكون من عمله إعادة الأوضاع في العالم والبشريّة إلى وضعها المثاليّ.

هذا يقودنا إلى موضوع الشخصيات المسيحيّة وعملها الخلاصيّ، ممّا سنأتي على تفصيله في الفصل التالي.



## تجديد العالم بواسطة الشعائر الدينية

إنَّ الشعائر الدينية التي من شأنها تجديد العالم بعد انهياره تعيد في الوقت الراهن ما حصل في البدء، عندما أتمَّ الخالق إنشاء العالم والبشر<sup>٢</sup>.

### ١. تجديد قدرة الآلهة

(١) هناك مثلاً في المرحلة القديمة للهندوسية تصوّر عن الإله إندرا وتضائل قدرته الخلاقة، فيقدّم له شراب السُّوما لتجديد قدرته على الخلق والعناية بخلائقه.

(٢) وهناك شعائر تقوم بتغطيس أصنام الآلهة في الماء - وهو طقس كان منتشرًا جدًا في العالم. والغاية منه أن تستعيد الآلهة قدرتها الخلاقة، لا سيّما آلهة الخصب، فتستعيد الحقول الموضوعة تحت حمايتها مثلاً قدرتها على الإنتاج.

- مثل هذا التغطيس عُرف في القدم بالنسبة إلى الإلهة الأم كيياله، فكانت يُغطّس تمثالها في نهر أو في حوض. وينسحب ذلك على أفروديت (في بافُس وأثينا)، وعلى الإلهات في كريت، وعلى إلهات الفينيقيين، وحتى على إلهات الجرمانيين.

<sup>٢</sup> - راجع في هذا الموضوع:

Mircea Eliade, Die Religionen und das Heilige, Salzburg 1954, 406-413 ;  
M. Eliade, Der Mythos der ewigen Wiederkehr, Düsseldorf 1953, 85-88.

- وفي المحيط المسيحي عُرِفَت منذ القرن الثالث عشر عادة تغطيس الصليب أو صور القديسين، لدفع خطر الجفاف والحصول على مطر. ولم يُجدِ حظر ذلك من قِبَل السلطة، فظَلَّت ممارسته جارية في بعض المناطق حتَّى القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

## ٢. التقادم والذباح

تقول كثير من قصص نشأة الخلق أنَّ الخالق ضبط عملاقاً قديماً، فقطَّعه وخلق من مختلف أعضائه أجزاء الكون: السماء والشمس والقمر والكواكب، والأرض والنبات والحيوانات، وحتَّى الإنسان (كما يرد في بعض القصص).

ولكن القوى الكونيَّة التي كانت في البدء متجمَّعة، تعمل بانتظام، مهدَّدة بالتقلُّص والفناء. لاسيَّما أنَّ النبات يخضع لأوقات يبدو وكأنَّه قد ضاعت قوَّته ومات، قبل أن يعود فينتعش. وقد تأتي أخطار الدمار من عمل الإنسان وتدخله في أحوال الطبيعة، كما يحصل ذلك عند قطاف بواكير الثمر وجنى الغلال وما شاكل.

فتصدِّياً لمثل هذه الأخطار يعمد الإنسان إلى إعادة القتل الطقسي في ذبيحة العملاق القديم، واستحضار قدرته بذلك. من هنا تقدِّم الذبائح الحيوانيَّة والبشريَّة، ومن هنا تقادم البواكير، فتحصل بذلك استعادة القدرة القديمة التي كانت حاصلة في أول انطلاقة الخليقة.

### ٣. ممارسة الجنس الطقسي

(١) بعض قصص النشوء تروي أن بدء الخلق نتج عن اتحاد جنسي بين الآلهة أو بين السماء والأرض. فتكون ممارسة الجنس الطقسية استحضاراً لهذا الاتحاد الجنسي القديم للبلوغ إلى تجديد انطلاقة الكون. من هنا يأتي الاعتقاد مثلاً أن ممارسة الجنس الطقسية أو العارمة بين شبّان وفتيات فوق مساحات الحقول تؤدي إلى تنمية خصب المزروعات.

(٢) أحد أشكال هذه الممارسة هي الاتحاد الجنسي الصاخب، وغايته هدم الحواجز بين الإنسان الفرد والمجتمع والطبيعة والآلهة، وتنشيط القدرة والحياة، ودفع انطلاقة البذور، وبسط التلاقي إلى جميع مجالات الواقع.

ثم إن ممارسة الجنس الصاخبة هدفها إعادة النظام إلى حالة الفوضى القديمة التي نهضت منها أجزاء الكون وعالم البشر.

### ٤. عيد رأس السنة

يُعتبر عيد رأس السنة في بعض الثقافات عودة إلى بدء الزمن، ودفعاً لانطلاقة جديدة في عام جديد. هذا ما تضمّنه مثلاً عيد رأس السنة عند البابليين - ويدعى أكيكو -، أو العيد الكبير عند القبائل البدائية في أندونيسيا. أمّا الطقوس التي تمارس في هذا العيد فتجري عموماً هنا وهناك وفقاً لبعض المراسيم التالية:



- طقوس التطهير، والإقرار بالذنوب، وطرْد الشياطين، وإبعاد الشرِّ عن القرية الخ.

- إطفاء النار، وإعادة إشعالها.

- تجوال أشخاص مقنَّعين يمثلون أرواح الأموات، وحفلة استقبال الأموات مع تقديم المأكَل، وتوديع الأموات من حدود البلد حتَّى الوصول إلى البحر أو النهر.

- مصارعة بين فريقين.

- شعائر مماثلة للكرنفال، وهدم النّظم القائمة، والقيام بالاتحاد الجنسيّ الصائب.

- وقد تقوم في بعض المناطق مراسيم تلقين أسرار الجماعات، أو خطف للفتيات وعقد قرائن.

هذا كلّه يدلّ على أنّ البشر، عند اختلال نظام الطبيعة أو حصول خطر على هذا النظام، يحاولون العودة إلى أحوال البدء، ليجعلوا انطلاقة جديدة مليئة بالآمال ممكنة. من هنا أهميّة ما يُعتبر البدء، وما يرمز إلى استعادة هذا البدء، مثل الماء الجديد، والطفل، والعذراء وما شاكل.

## الفصل السادس

### استعادة زمن الفردوس

إنّ دورة الأزمنة في حقبات العالم والشعائر الرامية إلى تحديد قوى الكون تُعدّ وسائل اعتياديّة على الصعيد الكوني والبشريّ للوصول إلى استعادة الوضع السليم الذي ساد في البدء. ولكنّ الأديان تعرف في مجرى التاريخ محطّات تظهر فيها شخصيّات غير اعتياديّة يقود نشاطها أو زمن سلطانها إلى استعادة الزمن السعيد، زمن الفردوس. وتدعى تلك الشخصيّات مُسحّاء، ويوصف نوع عملها بالمسيحانيّة.

وهناك تطّلع آخر إلى استعادة زمن الفردوس يشير إلى وقائع الأحداث في آخر الزمان. عند ذلك تُمحَق البشرية الخاطئة ويُقضى على عالمها، ذلك إنباء بعهد جديد، يقوم فيه عالم سليم وتسود فيه سعادة فردوسيّة. هذه هي وظيفة المُعاد.

نعكف هنا على وصف المسيحانيّة من مختلف جهاتها، ونعود في الفصل القادم على وقائع المُعاد.

### أوصاف الزمن المستعاد

إنّ ما تصف به الأديان الزمن التي تتمّ استعادته في عهد المسيحانيّة يطابق أوصاف زمن الفردوس. ونذكر هنا على سبيل المثال ما جاء في وصفه في العهد القديم من الكتاب المقدّس.

## ١. مقابلة عامة

أشعيا ٥١ : ٣ : قد عزّى الرب صهيون، وعزّى كلّ أحربتها، وجعل برّيتها كعدن وققرها كجنة الرب. فعاد فيها السرور والفرح والاعتراف وصوت النشيد.

## ٢. بعض التفاصيل

(١) نهر الفردوس

- أشعيا ٣٣ : ٢١ : بل لنا هناك الربّ العظيم ومكان أنهار وجداول واسعة الأطراف... لأنّ الربّ حاكمنا، الربّ مشترعنا، الربّ ملكنا فهو مخلصنا.

- زكريّا ١٤ : ٨ : ويكون في ذلك اليوم أنّ مياهًا حيّة تخرج من أورشليم، نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي، وتكون صيفًا وشتاءً. ويكون الربّ ملكًا على الأرض كلّها. وفي ذلك اليوم يكون ربّ واحد واسمه واحد.

(٢) الخصب العجيب

- عاموس ٩ : ١٣ : ها إنّها تأتي أيام، يقول الربّ، يُدرك فيها الحارث الحاصد، ودائس العنب باذر الزرع، وتقطر الجبال سلافاً وتسيل جميع الآكام.



- يوثيل ٤ : ١٨ : وفي ذلك اليوم تقطر الجبال سلافاً، وتفيض الإكام لبناً، وجميع مجاري يهوذا تفيض مياهاً، ويخرج ينبوع من بيت الرب، ويسقي وادي شطيم.

### (٣) النور الأبدي

- أشعيا ٦٠ : ١٩-٢١ : لا تكون الشمس من بعد نوراً لك فهاراً، ولا ينيرك القمر بضياءه ليلاً، بل الرب يكون لك نوراً أبدياً، وإلهك يكون فخرك. لا تغرب شمسك من بعد، وقمرك لا ينقص، لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً، وتكون أيام مناحتك قد انقضت. ويكون شعبك كلهم صديقين، وإلى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي وعمل يدي الذي أتمجد به.

- زكريا ١٤ : ٧ : ويكون يوم، وهو معلوم عند الرب، ليس بنهار ولا ليل، بل يكون وقت المساء نور.

### (٤) السلام الدائم في الطبيعة وفي البشرية

- أشعيا ٢ : ٤ : ويحكم بين الأمم، ويقضي للشعوب الكثيرين، فيضربون سيوفهم سكاكاً، وأستتهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب من بعد.

- أشعيا ١١ : ٦-٩ : فيسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر مع الجدي، ويكون العجل والشبل والمعلوف معاً، وصبي صغير يسوقها. ترعى البقرة والذئب معاً، ويربض أولادهما معاً، والأسد يأكل التبن كالثور. ويلعب المُرْضَع على حُجر الأفعى، ويضع القطيم يده في نفق

الأرقم. لا يسيئون ولا يُفسدون في كلِّ جبلٍ قُدسيٍّ، لأنَّ الأرض تمتلئ من معرفة الربِّ، كما تغمر المياه البحر.

- هوشع ١٢ : ٢٠: وأبثَّ لهم عهدًا في ذلك اليوم مع وحش الصحراء وطيور السماء ودبابات الأرض، وأكسر القوس والسيف والحرب من الأرض، وأريحهم في الدعة.

### استعادة زمن الفردوس على يد الملك

سادت في الزمن القديم فكرة الملك المقدّس. وكان الملك محور حياة المجتمع كلّها: فهو، إلى جانب سلطته في المجال السياسي، كاهن في أعلى مرتبة بين خدّام الطقوس الدينيّة. ثمَّ إنّه تُنسب إليه الحكمة الكاملة، وهداية شعبه السديدة. وبما أنّ كلَّ شعب كان يعتبر أرضه وسَط العالم، كان الملك يُعدّ ضماناً للزمن السليم للعالم بأسره، وهكذا ارتقت مهمّته إلى درجة مهمّة كونيّة. فظهور الملك الإله يُعدّ تحوُّلاً في مراحل الزمن، وبدءاً جديد في مجرى تاريخ الحياة. وكلَّ ارتقاء على العرش يعني تجديدًا للعالم واستعادة لزمن الفردوس.

وهذا الدور المسيحاني كان يُنسب إلى الملك بإلحاح، كلّما ازدادت أحوال المعيشة سوءًا وأوضاع النظام اضطرابًا، ولو كانت الأوضاع السابقة على غير ما توصف به من سوء، فإنّها يُنسب إليها سوء الحال، فيكون السلطان الجديد المخلّص الذي اختارته الآلهة لانتشال الشعب من الفاقة. مثل هذا التصوّر نعر عليه في غالب شعوب



الزمن القديم. ونقدّم هنا مختارات عن ذلك في نصوص البابليين وفي العهد القديم من الكتاب المقدّس. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أوصاف الزمن المبارك السعيد الذي توردّه هذه النصوص، ليس هو صورة عن واقع الأحوال الحسيّ، بل نظرة أمل إلى عمل صاحب السلطة الذي اختارته الآلهة ليقوم بتجديد العالم واستعادة زمن الفردوس.

## ١. المُلْك المقدّس في نصوص البابليين

تصف النصوص عمل الملك بالأوصاف التالية:

(١) غوديا، "الراعي الشرعي"، جلب، بفضل غيرته على خدمة الآلهة ومساكنها المقدّسة، زمن البركة، زمن النظام الاجتماعي والحياة الشريفة: فالصالح ينال ثوابه منتصباً، والشرير يُقصم ظهره.

(٢) الملك لوغُلزغيزي نشر الأمان في البلاد كلّها، "وسقى البلد بمياه الفرح" وجعل مدينة أوروك تشعّ في سلام.

(٣) حمورابي يدعو نفسه في مطلع كتاب شرائعه النسل الملكيّ الذي يحيا إلى الأبد، الملك العزيز، إله الشمس في بابل، "الذي أشرق بنوره على أرض سومر وأكّاد. وقد أوكل إليه الإله مردوك أن يحلّ الخلاص في البلد. وفي ختام شرائعه يوجز جوهر نشاطه الملكيّ وعمله في وصف نفسه بأنّه "الراعي، المخلص"، "الذي صولجانه عادل، فانتشر ظليّ الصالح في مدينتي، وضممت إلى حضني شعب بلد سومر وأكّاد".



٤) آشوربانيبال يُشيد باستلامه الحكم عن أمرٍ إلهيٍّ كبداء البركات. فمن وقت ارتقائه العرش غمرت آلهة الخصب البلد ببركتها، و"فاض الملء، وتراكم الرغد في سني حكمي".

وترد في النصوص المختلفة التي تمدهج عهده، أوصاف متكررة: أمن البلاد، ابتهاج سكانها، فيضان الخير من عند قدرات السماء والأرض، وبركة في الحظائر. وولادة نسل غفير كامل الصحة، واستتباب الأمن والوفاق بين الناس، ووفرة الغنى من خيرات الأرض. هذا كله انعكاس للزمن السعيد الذي تصوّره النصوص في وصفها لزمن الفردوس.

## ٢. العهد القديم من الكتاب المقدس<sup>١</sup>

### ١) ألقاب الملك المسيحاني

١- الملك هو ابن الله

- "أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً" (٢ صموئيل ٧: ١٤؛ مزمور

٨٩: ٢٧).

- "إني مسحتُ ملكي على صهيون جبل قدسي. لأخبرنَّ بحكم

الرب. قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدْتُك. سَلني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك" (مزمور ٢: ٦-٨).

<sup>١</sup> راجع في ذلك:

Helmer Ringgren, *Israelitische Religion*, Stuttgart 1963, 201-218; J. Nelis, *Messiaserwartung*, in: H. Haag, *Bibellexikon*, Einsiedeln <sup>2</sup>1968, col. 1139-1148.

٢- الملك يمثل الله، ولذلك هو مدعوّ ليسود على العالم، لأنّه بُعث من قبل الله ليوطّد النظام في العالم. لذلك على الأعداء الذين يقومون على الله وعلى مسيحه، أن يتّقوا الله ويخدموه برعدة. راجع مزمور ٢: ٧-٨ و ١٠-١٢؛ مزمور ٧٢: ٨-٩ و ١١.

٣- الملك هو كاهن، خلف الملك الكاهن ملكيصادق (راجع فيه تكوين ١٤: ١٨ وما يتبع)، ولكنّه بفضل دوام حقوقه إلى الأبد يسمو على ملكيصادق: "أقسم الربّ ولن يندم أن أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق" (مزمور ١١٠: ٤). واختيار الله له يمنحه الحقّ بالقيام بوظائف كهنوتية معيّنة.

- ٢ صموئيل ٦٨: ١٨: ولما فرغ داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم ربّ الجنود.

- ١ ملوك ٨: ١٤: وأقبل الملك بوجهه وبارك كلّ جماعة إسرائيل، وكانت جماعة إسرائيل كلّها وقوفاً (راجع أيضاً ٨: ٥٥).

- ١ ملوك ٨: ٦٤: وفي ذلك اليوم قدّس الملك وسط الدار التي أمام بيت الربّ، لأنّه قرّب المحرقة والتقدمة وشحوم ذبائح السلامة هناك...

- ١ ملوك ٩: ٢٥: وكان سليمان يُصعد ثلاث مرّات في السنة محرّقات وذبائح سلامة على المذبح الذي بناه للربّ...

- ٢ ملوك ١٦: ١٢-١٣: ورأى الملك المذبح فاقترّب الملك إلى المذبح وأصعد عليه، وقتر محرقة وتقدمة وسكب سكيه ونضح دم ذبائح سلامة على المذبح.

- ٤- الملك سلطان عادل، شديد الكمال متّحد مع الله.
- أشعيا ٩: ٥: لأنه قد وُلد لنا ولد، أعطي لنا ابن، فصارت الرئاسة على كتفه، ودُعي اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً جباراً، أباً الأبد، رئيس السلام.
- أشعيا ١١: ٢: ويستقرّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوّة، روح العلم وتقوى الرب.
- مزمور ٨: ٦-٧: نقّصته عن الملائكة قليلاً، وكَلَلته بالمجد والكرامة، سلّطته على أعمال يديك. وأخضعت كلّ شيء تحت قدميه...

## (٢) استعادة أحوال الفردوس

نزيد على النصوص التي وردت أعلاه نصوصاً أخرى يتعلّق بعضها باستعادة أحوال الفردوس على يد الملك المسيحاني.

### ١- ملكه عليه سمات النظام المُفلح والسلام

- أشعيا ٩: ٦: لنموّ الرئاسة ولسلام لا انقضاء له على عرش داود ومملكته، ليقرّها ويوطّدها بالانصاف والعدل من الآن وإلى الأبد. إنّ غيرة ربّ الجنود تصنع هذا.

- ميخا ٥: ١ و٣: وأنتِ، يا بيتَ لحم أفراتا، إنَّك صغيرة في ألوف يهوذا، ولكن منك يخرج لي من يكون متسلّطاً على إسرائيل، ومخارجه منذ القلسم منذ أيام الأزل. ويقف ويرعى بعزة الربّ وبعظمة اسم الربّ إلهه، فيكونون ساكنين، لأنّه حينئذٍ يتعاضم إلى أقاصي الأرض.



٢- داخل مملكته يسود الحق والعدل

- مزمور ٨٩: ١٥: قاعدة عرشك العدل والقضاء. الرحمة والحق يسلكان أمام وجهك.

- مزمور ٧٢: ١-٤ و ١٢ - ١٤: ألهم اجعل أحكامك للملك وعدلك لابن الملك. فيحكم بالعدل ولبائسيك بالإنصاف. تثمر الجبال سلاماً للشعب، والتلال برّاً. يقضي لبائسي الشعب ويخلص بني المساكين ويحطّم الجائر. - لأنّه ينقذ المسكين المستغيث والبائس الذي لا ناصر له. يرثي للكسير والمساكين، ويخلص نفوس المساكين. من الظلم والغضب يفتدي نفوسهم ويكون دمهم في عينه ثميناً.

- أشعيا ١١: ٤-٥: بل يقضي للمساكين بعدل، ويحكم لبائسي الأرض بإنصاف، ويضرب الأرض بقضيب فيه، ويهلك المنافق بنفسه شفتيه. ويكون العدل منطقة حقويه والحق حزام كشحيه.

٣- يجلب ملكه للأرض خصباً ورغداً

- مزمور ٧٢: ٦، ١٦: ينزل كالطر على الجزّة، كالغيوث التي تسقي الأرض. يكون للبرّ توافر في الأرض، غلّته في رؤوس الجبال تنموّج كلبنان، ويزهر أهل المدن مثل عشب الأرض.

٤- ملكه هو للجميع ملك مليء بالبركة والسلامة

- أشعيا ٦١: ١-٣: إنّ روح السيّد الربّ عليّ لأنّ الربّ مسحني لأبشّر المساكين، وأرسلني لأجبر المنكسري القلوب، وأنادي بعثق للمسيّبين وبتخلية للمأسورين. لأنادي بسنة الربّ المقبولة، ويوم انتقام

إلهنا، وأعزّي جميع النّائحين. لأجعل لنّائحي صهيون لأمنحهم التاج  
بدل الزّمامد، ودُهْن السرور بدل النوح، وقلة التّسبيح بدل روح  
الاكتئاب...

٣) ولكن زمن الفردوس المرتقب لم يتحقّق، ولم يقيم ملك من بعد،  
ولم يستلم بعد عهد زُرّبابل ابن من سلالة داود منصباً مرموقاً. هذا أدّى  
إلى البحث عن حلول وتصوّرات جديدة.

١. فمنهم من جعل يتصوّر عودة لداود:

- إرميا ٣٠: ٨-٩: وفي ذلك اليوم، يقول ربّ الجنود، أكسر نيره  
عن عُنقك وأقطع ربّطك، ولا يستعبده الغرباء من بعد. بل يتعبّدون  
للربّ إلههم ولداود ملكهم الذي أقيمهم لهم.

- حزقيال ٣٤: ٢٣-٢٤: وأقيم عليهم راعياً واحداً يرعاهم عبدي  
داود، فهو يرعاها وهو يكون راعيها. وأنا الربّ أكون لهم إلهاً، وعبدي  
داود يكون في وسطهم رئيساً، أنا الربّ تكلمت.

- هوشع ٣: ٥: وبعد ذلك يرجع بنو إسرائيل ويطلبون الربّ إلههم  
وداود ملكهم، ويهابون الربّ وجودته في آخر الأيام.

٢. وهناك أيضاً نزعة إلى تأكيد طابع المسيح المعاديّ في نصوص مثل  
التي وردت في المزمورين ٢ و ٧٢ وسواهما.

## استعادة زمن الفردوس على أيدي أشخاص مُسحّاء

إليك بعض الأمثلة عن تصوّر استعادة زمن الفردوس على يد من يُعدّ مسيحًا، أكانت له صفة الملك أو صفة الكاهن.

### ١. في الدين اليهودي

#### (١) المسيح الملك

نجد مثالاً واضحاً لهذا التصوّر في مزامير سليمان، وهي كتاب نشأ بعد اجتياح الرومان لأورشليم عام ٦٣ قبل المسيح، نقرأ في الفصل السابع عشر ما يلي:

١ - مهمّة الملك تقوم بإقامة أوضاع تسودها التقوى والنظام في بلد قام الغرباء الوثنيون بهدمه:

أنظر، يا ربّ، وابحث فيهم ملكهم، ابن داود،  
في الوقت الذي اخترته أنت، يا الله، ليحكم في عبدك إسرائيل.  
فنطقه بالقوّة، لكي يسحق السلاطين الظالمين،  
ويطهر أورشليم من الأمم التي تدوسها تذليلاً.  
وليطرد الخطأة من الأرض بحكمة وعدل،  
ويحطّم تكبر الخاطيء كالفتحار.  
وبعضاً من حديد ليحطّم جميع هذه الكائنات،  
ويفني الأمم الكفّار بكلمة فمه.  
(١٧ : ٢١ - ٢٤) ٢.

٢ - قابل ما جاء في المزمور ٢ وعند أشعيا ١١.



- ٢- بعد عمل الانتقام هذا يجمع الملك شعباً مقدّساً، ويؤسّس مملكة لا تعرف الظلم، ويكون جميع الناس فيها قديسين. هو يخضع شعوب الوثنيين (١٧ : ٢٦-٣٢)، ويسهر بحكمته الملهمة من قبل الروح، وبعده وقوّته على أن يصنع الشعب الخاضع له أعمال البرّ والعدل.
- ٣- ميزاته هي أنّه سلطان على العالم، لأنّ الله اختاره، ولاّته يتكل على الله وحده (١٧ : ٣٣ - ٣٤). وهو كامل دينياً وأخلاقياً (١٧ : ٣٦-٣٨).

## ٢) المسيح الكاهن

نجد في "وصايا الآباء الاثني عشر"، لاوي ١٨، الوصف التالي:  
 في عهد كهنوته تزول كل خطيئة  
 ويكفّ الجاحدون عن اقتراف الشرّ،  
 وهو نفسه يفتح اقتراف الشرّ،  
 وينجّي السيف الذي يهدّد آدم  
 ويعطي القديسين طعاماً من شجرة الحياة،  
 ويربط بليعار.

تتضح في هذه السطور النزعة المعاديّة. وسنعود إلى ذلك في الفصل التالي.

## (٣) مُسخاء مختلفون

١- عرفت اليهودية قرابة ظهور يسوع المسيح أشخاصاً اعتبرهم الناس مسحاء نادوا بحلول عهد المسيح واستعادة مُلك إسرائيل. وكانوا يعدّون عملهم كاستعادة للأحوال الخلاصية التي عرفها تاريخ الشعب، مثل ذلك ما حدث في عهد موسى وقائد الشعب يشوع. وكان الشخص المسيحاني وأتباعه يرتقبون حدوث معجزة تؤيد صدق رسالة النبيّ هذا وتعلن عن بدء زمن الخلاص. وكان أكثرهم يسعون إلى أهداف سياسيّة تمكّنهم من استعادة الأوضاع الدينيّة وبواسطتها استعادة زمن الفردوس. وكان جهادهم موجّهاً ضدّ الرومانيين المحتلين.

## ٢- بعض الأمثلة على مثل هذا النشاط

- في عهد الوالي كوسبيوس فادوس، برز رجل اسمه تودا، ادّعى أنّه نبيّ وأنّه سيفلق نهر الأردن ليمرّ أتباعه على اليبس، وذلك كما فعل يشوع بن نون إذ مرّ بالشعب ليبدأ باحتلال أرض الميعاد (راجع سفر يشوع ٣: ١٥-١٧). فتمكن بذلك من انتزاع السلطة من يد الرومانيين. ولكنّ الوالي فادوس قضى على هذه المحاولة.

ورد ذكر هذا الرجل في تاريخ يوسيفوس اليهودي (٢٠: ٩٧-٩٨)، كما ورد ذكر هذه الحادثة أيضاً في أعمال الرسل (٥: ٣٦)، على لسان جَمَلِيل: "فقبل هذه الأيام قام تودا، فادّعى أنّه شيء عظيم، وانجرّ وراءه نحو أربع مئة رجل. فقتل وتمزّق جميع مُشايغيه ولم يبقَ لهم أثر بعد عين".

- ومن المحاولات الكثيرة المماثلة نورد على سبيل المثال ما أخبر يوسيفوس (٢٠ : ١٦٧-١٦٨) عن محاولة مصري ادّعى النبوة وجاهر بأنّه قادر أن يصنع ما فعله يشوع عند فتح أريحا، إذ سقطت أسوارها عند صوت الأبواق (يشوع ٦ : ٢٠)، ولكن الحاكم فيلكس هزمه وأتباعه، فهرب وتبدّدت جماعته. ولعلّ هؤلاء كانوا لا يزالون يرقبون عودة ظهوره (راجع أعمال الرسل ٢١ : ٣٨).

- وإن كانت الآمال المسيحانية قد خمدت بعد هذه الاضطرابات، إلّا أنّنا نجد عند المؤرّخ البيزنطيّ سقراط قصّة تيار مسيحاني في جزيرة كريت في القرن الخامس بعد المسيح. فقد ظهر رجل يزعم أنّه موسى العائد ليقود الشعب عبر البحر من كريت إلى فلسطين، كما عبر موسى البحر مع الشعب (راجع خروج ١٤ : ١٥-٣١). فجرّ وراءه عددًا كبيرًا من الأتباع. وفي الموعد المحدّد قفز كثيرون من أتباعه من صخور شاطئ كريت إلى البحر وغرقوا. ولما التفت الباقيون إلى النبيّ الكاذب، كان هذا قد هرب واختفى عن الأنظار.

إنّ إخفاق الجهود المتكرّر لإحياء زمن الأنبياء واستعادة أعمالهم الخلاصيّة، أدّى إلى نقل الآمال إلى آخر الزمان وتعليقها بما سيحدث في الحقبة الأخروية.

٢. في زمن يسوع المسيح كان مثل هذه الآمال لا تزال حيّة، حتّى عند تلاميذ يسوع إلى أن حل الروح القدس عليهم يوم العنصرة.



- إن الذين شهدوا عجيبة تكثير الخبزات، طلبوا يسوع ليعلنوه ملكاً (يوحنا ٦ : ١٥). وهذا كان علامة حلول الزمن المسيحاني.
- وتلميذا عماوس صرّحا في حديثهم على الطريق مع يسوع، الذي لم يعرفاه إلا بعد ذلك عند كسر الخبز: "ما يختصّ بيسوع الناصريّ الذي كان نبياً مقتدرًا بالفعل والقول أمام الله وأمام الشعب كلّهُ... وكنا نعلّل النفس بأنّه هو الذي سيُنقذ إسرائيل (لوقا ٢٤ : ١٩ ، ٢١).
- ولعلّ هذا يشرح لماذا كان بعض التلاميذ يسعون إلى أن يجلسوا على الكراسي الأولى في ملكوت يسوع (مرقس ١٠ : ٣٥-٤٥؛ متى ٢٠ : ٢٠-٢٨).
- ومباشرة قبل صعود المسيح إلى السماء، "سأله الذين كانوا مجتمعين معه: أفالآن، يا ربّ، هو الزمان الذي تردّ فيه الملك لإسرائيل؟" (أعمال الرسل ١ : ٦).

### ٣. في تراث المجتمعات البدائيّة

- إنّ تشابك النظرات الدينيّة والسياسيّة وتوجيه ترقّب الخلاص في أوقات الأزمات الحرجة إلى زمن معاديّ أخروي، يبدو بوضوح في بعض التيارات في أفريقيا وأوقيانيا وغيرهما من البلدان.
- عند قبيلة السيّو في أميركا الشماليّة نعثر على ترقّبات مسيحانيّة يكون من بين أهدافها تحرير القبيلة من الكبت الناتج من احتلال الجنس الأبيض. وهناك أيضًا تصوّرات تصف تدهور الكون إلى الفوضى وعودة العالم في بدء جديد.

- وهناك مثل واضح للتشابه بين التصوّرات السياسيّة والدينيّة والمُعاديّة في أفريقيا، نجده في حركة أتباع سمعان كيمبانغو في البلد الذي كان يُدعى قديمًا الكونغو<sup>٣</sup>.

---

<sup>٣</sup> - راجع في ذلك مقالتي:

Adel Theodor Khoury, Messianische Bewegung in Afrika, in : Wilhelm Heinen (Ed.), Erwartung, Verheissung, Erfüllung, Würzburg 1969, 206-230.

## الفصل السابع

### الاستعادة المعادية لزمان الفردوس

عندما تخيب آمال البشر في استعادة زمان الفردوس عند ارتقاء الملك عرش السيادة، أو عند انطلاق نشاط أشخاص تنسب إليهم مهمة المسيح أو يعدون باستعادة معجزات الأنبياء من قبلهم، عند ذلك تتطلع الآمال إلى المستقبل، إلى مستقبل من شأنه أن يبعث البشرية من انزلاقها في الشر والضياع، ويعيد محاسن زمان الفردوس. وأفضل ما يحصل ذلك في آخر الدهر، حين تفنى الدنيا في وضعها الرديء، وينبعث زمان جديد مليء بالسعادة، يضمن استعادة زمان الفردوس وهنائه وسعادته. نجد مثل هذه التصورات في عدد من روايات الشعوب المختلفة.

#### ١. جنوبي شرقي آسيا

(١) عند سكان جزر الأندمان، غربي شبه جزيرة مَلَكَا، يُصدر الإله بُولُوغا أمره بهدم الأرض وجسر السماء بزلزال، فتنهض نفوس الأموات وأرواحهم وتتحد من جديد. بعد ذلك يسلك البشر مسلكاً صالحاً ويحيون عيشة سعيدة شديدة القوى، بعيدة عن المرض والموت والزواج. مثل هذا نصادفه عند الأقزام السيمانج في شبه جزيرة مَلَكَا.

(٢) روايات قبائل شبه الأقزام تقول إن الإلهة العظمى يابوديو تأتي في آخر الدهر، عندما يكون الناس قد ماتوا جميعهم، فتفني كل شيء بالأعاصير، وتحتاج المياه الأرض، وتنتشر عظام البشر، ثم تعود هذه



فتنهض من الموت. ويقطن البشر الصالحون في أرضٍ تمّ تجديدها، ويعيشون تحت الزهور. فلا يكون هناك من بعد شجر ولا ثمر ولا ثعابين، ولا مرض ولا موت. وتجتمع أفراد الأسر بعضها إلى بعض، ولكنهم لا ينجبون أولاداً من بعد. أمّا الأشرار فيطهرون بحميم مياه الإلهة المتأججة، أو يمسحون ثموراً أو حجارة عندما يتعذّر تطهيرهم ويمحقون أخيراً، وحتى النفوس المطهّرة من بينهم لا تبلغ إلى فردوس الزهور<sup>١</sup>.

## ٢. الهندوسية

في آخر حقبة من دورة الزمن يظهر الإله فيشنو في هيئة المخلص كلّكي. مهمته أن يخلق الأرض خلقاً جديداً، يابسة حلوة في وسط المياه. فيجد العالم والبشر نظامهم المتناغم وعيشتهم الموافقة للشرعية، فيكون الخلاص في تناول كلٍّ أحد.

ولكن قبل أن يبلغ الأمر إلى هذا الوضع الأخير تحدث التهلكة التي تشمل الأرض والبشر على يد شياطين أشرار. فتقوم معركة هائلة بين هؤلاء والآلهة. فتتصر الآلهة، ولكن الشياطين يعودون تكراراً إلى الحياة وإلى نشاطهم، بحيث إنّ الآلهة أنفسها تنسحب من الميدان. فيتدخل

<sup>١</sup> - راجع عن جنوبي غربي آسيا:

Wilhelm Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, III, Münster 1931, 138ss, 187-188; Carl-Martin Edsmann, Eschatologie I. Religionsgeschichtlich, in: Religion in Geschichte und Gegenwart (RGG) II, Tübingen 1958, col. 652.

فيشنو في المعركة ويُحرق الشياطين. بذلك تتحرّر الأرض من القوّات الشريرة<sup>٢</sup>.

### ٣. إيران القديم

(١) يُعدّ زرادشت (ما بين ١٠٠٠ و ٦٠٠ قبل المسيح) نبيّ إيران القديم الأكبر والمخلص الأول الذي ينعش الحياة ويعيد العافية إلى البشر الذين يعانون من الأمراض من قبل الشياطين. ويوصف بالصدّيق الذي يشفي الحياة، والقاضي الذي يعافي الحياة، والمغيث الذي يأتي بالخلاص. وبواسطة مكافحة زرادشت والصالحين لقوّات الشرّ الشيطانية حتّى إفنائها يبلغ العالم إلى كماله.

وتتبع حقبة حضور مخلصين من بعده، كلّهم من سلالة. آخرهم وأهمّهم يُدعى أَسْتَفَرْد-أَرْتَا، ويعني اسمه "الحقّ المتجسّد" ويُعدّ رسول الإله أهورا-مزدا. وهو الذي يتغلّب على كلّ ألم صادر عن الشياطين والبشر. وهدف كفاحه هو استعادة الوضع السعيد الذي يتوق إليه العالم، فلا تعود الحياة تُهرم ولا تبلى، ولا تفسد، بل تكون أبدية ويكون رغدًا حاصلًا على الدوام<sup>٣</sup>.

<sup>٢</sup> - راجع:

Emil Abegg, Der Messiasglaube in Indien und Iran, Berlin/Leipzig 1928, 68-71.

<sup>٣</sup> - راجع: Geo Widengren, Die Religionen Irans, Stuttgart 1965, 106-107.

## (٢) نهاية العالم

١- يذكر زرادشت مرّات عديدة أنّ نهاية العالم تحصل بقضاء إلهيّ يغشى الكون بالنار والمعدن الذائب. هذا من أمر أهورا-مزدا الذي يجلس للقضاء فيجازي الأخيار والأشرار وفقاً لأعمالهم. وهذا هو القرار الحاسم الذي يتّجه نحوه مجرى العالم كلّهُ. وينتهي هذا القضاء العظيم إلى تجلّي الكون، فيمحق الشرّ ويغلب الخير.

٢- ويسبق هذا القضاء الحاسم تدهور أوضاع الحياة والكون، تصفه النصوص الإيرانيّة المتأخّرة على النحو التالي:

- يسود القهر والانفلات من الحقّ وانحلال روابط المجتمع، ويظهر هذا الانحلال حتّى في العائلات.

- ويهرب الناس إلى القفار، ويلجأ الصالحون وأنصار الخير إلى أحد الجبال.

- وتنهار البلدان ليس فقط بالسيف والنار، بل أيضاً بزلازل متواصلة. وتجفّ الأنهار والينابيع، بحيث لا يعود هنا ما يكفي من ماء الشرب.

- وتظهر في السماء علامات مخيفة تزجّ الرعب في قلوب الناس: فتساقط الشهب، وتنكسف الشمس، ويتحوّل لون القمر، وتساقط النجوم.

- وتقلّص مدّة السنة، ويقصّر الشهر، وتعصر ساعات النهار.

- وتتداعى الجبال الشاهقة وتُمسح وهاداً.



- وبسبب الشرّ المتفاقم على الأرض وفي وسط البشر، يتمنى الناس الموت ويغبطون الأموات ويكون على الأحياء.
- وينقرض جنس البشر، حتّى إنّه لا يعود يبقى منهم إلّا ما يقارب عشر أعدادهم.
- وبعد ذلك تقوم المعركة الحاسمة بين القوى الشيطانية والصالحين. ويرفع الدعاء إلى الله، فيرسل "الملك العظيم" المخلص.

٣- وتصف نصوص من النصف الثاني من القرن الثاني قبل المسيح، تدعى تنبؤات هِسْتَابِس، المعركة الحاسمة ودور الملك العظيم على النحو التالي: "فجأة يسقط سيف من السماء، لكي يعلم الصالحون أنّ قائد الحرب المقدّسة سوف يهبط، ترافقه الملائكة، يهبط إلى وسط الأرض، تسبقه نار لا تُطفأ. وتسلم قوّة الملائكة إلى أيدي الصالحين أولئك الذين يحاصرون الجبل. ويدوم الذبح من الساعة الثالثة حتّى المساء. وتنهمر الدماء كالسيل العرم. وبعد أن تنقرض جميع الجيوش، يبقى الكافر الأعظم، فيهرب وحده ويُنزع منه سلطانه".<sup>٤</sup>

جدير بالذكر هنا إنّ النصر النهائي لا يعدّه الفكر الإيراني القديم عودةً إلى البدء السعيد في الفردوس، بل هو عنده الهدف النهائي الذي يجري تجاهه تاريخ الكون والعالم والبشر منذ نشأتهم، فينتهي الصراع الحاصل منذ البدء بين الخير والشرّ إلى انتصار نهائي للخير بفضل تدخل إله الخير والمخلص الذي بعثه. فلا تكون بعد ذلك عودة من زمن

<sup>٤</sup> - راجع ص ١٩٩ - ٢٠٧ من المرجع المذكور في الحاشية ٣.

الفردوس إلى زمن من حقبة دورة التاريخ، بل هي مرحلة نهائية صالحة لا رجعة عنها.

#### ٤. العهد الجديد من الكتاب المقدس في المسيحية

##### (١) علامات نهاية العالم

- يُعدّ من العلامات الإيجابية أنّ الإنجيل يُشرّ به في العالم كلّ (متى ٢٤ : ١٤)، وأنّ شعب اليهود يرتدّ كلّ إلى يسوع المسيح (رومة ١١ : ٢٥).

- ومن العلامات السلبية أنّ الضلال يهدّد الكثيرين ويحيد بهم عن الطريق القويم (متى ٢٤ : ٤ ؛ ٢ تسالونيكي ٢ : ٣)، وانحلال الأخلاق ونشاط المسيح الدجال، "إنسان الإثم، ابن الهلاك، المضادّ، المترفع عن كلّ ما يُدعى إلهاً أو معبوداً" (٢ تسالونيكي ٢ : ٣ - ١٢) قابل أيضاً (يوحنا ٢ : ١٨ - ٢٢).

##### (٢) المعركة الحاسمة

١- إنّ المعركة الحاسمة بين الله والمسيح الدجال، ترافقها كوارث معادية هائلة (رؤيا، فصل ٨ و ٩).

- لوقا ٢١ : ٢٥ - ٢٦ : وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كربٌ للأمم وهلع من عجاج البحر وجيشانه. وتُزهق نفوس الناس من الذعر في انتظار ما سيأتي على المسكونة، لأنّ قوات السماوات ستتزعزع.



- ٢ بطرس ٣: ١٠ و ١٢: بيد أن يوم الرب سيأتي كلصاً؛ وفي ذلك اليوم تزول السماوات في دويّ قاصف، والعناصر المتقدمة تنحل، والأرض والمصنوعات التي فيها تخرق. [وكم يلزمكم] أن تنتظروا وتستعجلوا مجيء يوم الله، الذي من أجله ستنحل السماوات ملتهبة، وتذوب العناصر متقدمة!

٢- ويكون مجيء المسيح، الذي يقود المعركة الحاسمة في سبيل الله.  
- لوقا ٢١: ٢٧-٢٨: حينئذٍ يشاهدون ابن البشر آتياً في الغمام في كمال القدرة والمجد. ومتى بدأ ذلك فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن خلاصكم بات قريباً.

- متى ٢٤: ٢٧: فإنه مثلما أن البرق ينطلق من المشرق ويلتصع حتى المغرب كذلك يكون مجيء ابن البشر.

- ٢ تسالونيكي ١: ٧: عند تجلي الرب يسوع من السماء مع ملائكة قدرته.

- الرؤيا ١٩: ١١-١٨: ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا بفرس أبيض، والراكب عليه يسمّى "الأمين" و"الصادق"؛ وهو يقضي ويحارب بالعدل. عيناه كلهيب النار، وعلى رأسه أكاليل كثيرة؛ وله اسم مكتوب لا يعرفه أحدٌ سواه؛ وعليه رداء مصبوغ بالدم؛ ويدعى اسمه: "كلمة الله". وتتبعه جيوش السماء على خيل بيض، لابسين زياً أبيض نقياً. من فيه يخرج سيفٌ صارم، ليضرب به الأمم. وهو سيرعاهم بعصا من جديد. وهو سيدوس معصرة سُخِطَ اللهُ القديرة وغضبه. وعلى رداءه، وعلى فخذيه اسمٌ مكتوب: "ملك الملوك وربّ الأرباب".



ورأيت عندئذٍ ملاكًا قائمًا في الشمس، فصرخ بصوت جهير، يقول لجميع الطيور الطائفة في وَسَط السماء: هلمِّي! اجتمعن إلى وليمة الله العظيمة، لتأكلن لحوم الملوك، ولحوم القواد، ولحوم الأبطال، ولحوم الخيل وفرسانها، ولحوم الجميع: الأحرار والعبيد، الصغار والكبار.

### ٣- القتال وانتصار المسيح الملك

الرؤيا ١٩: ١٩-٢١: ورأيتُ الوحش وملوك الأرض وجيوشهم قد حشدوا ليحاربوا الراكب على الفرس وجيشه. فقبض على الوحش، وعلى النبيِّ الكذاب الذي معه، الذي صنع بين يديه الآيات فأضلَّ بها المتَّسمين بِسِمة الوحش والذين سجدوا لتمثاله، وطُرِحَا كلاهما معًا، وهما حيَّان، في بحيرة النار المتَّقدة بالكبريت. وأمَّا الباقون فقد قُتلوا بسيف الراكب على الفرس، السيف الخارج من فيه، فشبت جميع الطيور من لحومهم.

### ٣) الفردوس الجديد

- يقبض المسيح السلطان على الجميع، لأنَّ "مُلك العالم قد صار لربِّنا ولمسيحه، فهو يملك إلى الدهور" (الرؤيا ١١: ١٥). ويوطد المسيح ملكوت السلام والسعادة، ويقيم "على حسب وعده، سماوات جديدة، وأرضًا جديدة فيها يسكنُ البرُّ" (٢ بط ٣: ١٣). هذا يؤكِّده، على ما جاء في سفر الرؤيا "الجالس على العرش: ها إني أجعل كلَّ شيء جديدًا" (رؤيا ٢١: ٥).

- بقيام ملكوت الله النهائي وتحديد كل شيء ينتهي تاريخ البشرية والخلقة. ويُحذف الصراع بين الخير والشر، فالتاريخ الذي يسعى وراء معناه واكتماله يجد عند الله في ملكوته امتلاءه وغايته النهائية.

- وهذا الامتلاء وهذا الفردوس الجديد ليس بالمعنى الحصري استعادة بسيطة للفردوس القديم، بل هو يتخطى آمال وأحلام البشر: "إنَّ ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يحبّونه" (١ كورنثس ٢ : ٩؛ قابل أشعيا ٦٤ : ٣). فلا يكون الفردوس القديم سوى ما يشبه بذرة الامتلاء عند الله في السماء.

## الفصل الثامن

### الموت والخلود

إنَّ الإنسان يختبر وجوده وحياته خاضعين للمخاطر والمساوئ. وأشدَّ مظاهر هذه المساوئ هو تعرُّضه للزوال وخضوعه المرير لسنة الموت. لذا نرى الأديان تهتمُّ اهتمامًا بالغًا بالموت، محاولة إيجاد جواب عن أسبابه ومعناه ووسائل التغلب عليه. وتُطرح الأسئلة الملحة التالية: هل الموت نهاية كلِّ شيء؟ هل فرضت على الإنسان ملاقات الموت؟ وما هو معنى الموت؟ وهل يستطيع الإنسان الإفلات من الموت أو التغلب على الموت؟ أخلص الله الإنسان من الموت؟ أم يكون الموت نصيب الإنسان ولا مفلت من الفناء؟

تورد لنا النصوص الدينية مجموعة مقولات تدور حول القضايا التالية:

١- نشأة الموت، وهنا ترمي القصص والحكم إلى التغلب على فاجعة الموت بمحاولة فكرية لإيجاد معنى له وتبرير مهمته في حياة الأفراد وحياة المجتمع.

٢- البحث عن الوسائل لإطالة العمر، والحفاظ عليه إلى الأبد أو لتجديد الحياة بتجديدًا متواصلًا.

٣- هناك أخيرًا التصورات عن الحياة في الآخرة التي يفضي إليها الإنسان بعد مماته. وهذه محاولة أن لا يُعتبر الموت قطعًا نهائيًا للحياة.



## نشأة الموت

## ١. الموت نتيجة الصدفة

(١) أفريقيا<sup>١</sup>

- كان الناس في الزمن الأول، عندما يكونون قد بلغوا سنَّ الكبر، ينزعون عنهم جلدهم ويتخذون بذلك شبابًا جديدًا. وفي إحدى الصدَف توقفت عند رجل طاعن في السنّ عملية نزع الجلد، فلم يعد اتّخاذ الشباب الجديد ممكنًا، وهكذا دخل الموت إلى العالم.

- تروي قصّة عند قبيلة باكا أنّه قام جدال بين الله والصفدة في شأن مصير الإنسان. وتمكّنت الصفدة من تنفيذ رأيها في أنّ على الإنسان أن يموت. في قصص أخرى يُروى أنّ الخالق لم يكن بعدُ قد جزم في قضية الحياة والموت، وأنّ هذا القرار سلّم إلى حيوانات أرسلت من قبله ومالت في قرارها إلى تأكيد موت الإنسان.

- تروي قصص منتشرة في بقاع أفريقيا أنّ مصير الإنسان لم يكن في البدء مقرّرًا بعد نهائيًا. فيقول مثلاً الزولو إنّ الله كان قد بثّ في الأمر على أن يحيا الإنسان حياة دائمة. فأرسل حيوانًا يخبر البشر بذلك. ولكن هذا الحيوان تباطأ في سعيه. وفي هذه الأثناء عدّل الخالق رأيه واستحسن أن يخضع الإنسان للموت فأرسل حيوانًا آخر وسبق الأوّل وأبلغ إلى الناس قرار الخالق بوجوب إخضاعهم للموت.

<sup>١</sup> - Ernst Dammann, Die Religionen Afrikas, Stuttgart 1963, 87-90

(٢) أميركا الجنوبية<sup>٢</sup>

هنا جاء الموت نتيجة خطأ جسدي حصل صدفة. تقول القصة إنَّ الناس كانوا يعيشون سعداء ولا يعانون أي ألم. وذات يوم بلغ والد مانا عمراً طويلاً وصار شيخاً بالغ السن. فسأله ابنه: يا أبي، متى تموت؟ أجابه أبوه: أودّ أن أموت، وعليك أن تقتلني، وإلا فلا أستطيع أن أموت. اجلب لي طعاماً مسموماً لكي أموت. ولما احتضر قال: ها أنا أموت، وسوف أصعد إلى السماء، وأنادي على مدى الطريق، فإن سمعتني أقول: بدّل جلدك، بدّل جلدك، فسيكون أنكم متى بلغت سنّ الشيخوخة تبدّلون جلودكم وتبقون على قيد الحياة. أمّا إن كنتم ثقيلي السمع وأخطأكم السمع، فإنكم سوف تموتون.

وفي اليوم التالي سُمع صوت الرعد بشكل متواصل. وصعد الوالد إلى السماء وهو يصيح. وأنصت الابن. وجاء نداء الوالد: بدّل الجلد، بدّل الجلد. وكان الولد ينصت ويصغي. فسأله أخوه: ماذا ينادي؟ أجاب مانا، والدنا يقول: كُفّوا، كُفّوا. لذلك علينا أن نموت.

كان سماع البشر ضعيفاً، ولذلك يموتون. وكانوا من قبلُ تبدّل أجسادهم عند حضور الموت، فمن كان منهم شيخاً هرمًا تحوّل إلى صبيّ صغير. ومتى ماتت نساء بالغات في العمر، تحوّلن وعدن فتيات صغيرات. ولكن مانا أخطأ السمع، لذلك هم يموتون ولا يعودون إلى الحياة من بعد.



## ٢. الموت نتيجة خطأ من قبل الخالق

تروي قصة من ميلانيزيا أن الإله الخالق قُوات كان قد خلق الأزواج البشرية الثلاثة. ولكن كان هناك روح آخر يراقب عمله. وأراد هو أيضاً أن يصنع بشراً. فجبل كائنات بشرية على الطريقة التي سلكها قُوات. ثم دفنهم تحت أوراق الشجر وأغصانها في الغابة. ولكنه لما جاء بعد سبعة أيام لينتشلها من الحفرة آملاً أن تكون قد حصلت على الحياة وجدها متداعية بلا حراك.

من هنا، من خطأ الجاهل نتج الموت.

## ٣. الموت ضرورة اجتماعية

(١) الموت حلّ لمشكلة تضخم عدد السكّان، فلا تعود الأرض تكفي لإشباع الناس فينتشر الجوع والوباء. هذا في قصص من أميركا الشمالية ومن أفريقيا.

(٢) عدم الموت يكمن فيه نفسه وباؤه ويجلب الأخطار على المجتمع.

- في ميلانيزيا يُشار إلى خطر المخالطة الجنسية بين الأهل والأقرباء: كان الناس يستعيدون شبابهم ويفلتون بذلك من الموت. وذات يوم استعادت امرأة عجوز شبابها وعادت في شكل فتاة شابة إلى بيتها، فلم يعرفها أولادها، واشتهاها أحد أولادها وأراد أن يتزوجها. فمن شدة هلعها ويأسها استعادت جلدتها القلم ولم تعد ترغب في الخلود.



- وهناك مشكلة الأنانية عند البشر وخطر كبت الأجيال الناشئة من قبل الأجيال السابقة، فيعمّ فيها الفقر والفاقة. فكان الموت وسيلة لمنع تكدّس الأموال في أيدي البعض، ولتمكين توزيع الخيرات على الأجيال المتعاقبة (هذا في نصّ من ميزلانيزيا).

### (٣) الموت نتيجة الممارسة الجنسية وتعاقب الأجيال

- قصّة من أفريقيا: الخالق سوكو خلق أولاً السلحفاة. ثمّ برأ البشر. وأخيراً صنع الحجارة. وخلق من كلّ جنسٍ منهم ذكراً وأنثى. ولكنهم لم يكونوا ينجبون الأولاد، لا السلحفاة ولا البشر ولا الحجارة. ثمّ وهب سوكو الحياة السلحفاة والبشر. أمّا الحجارة، فلم يهبها الحياة. وكانت السلحفاة ترغب جداً في أن يكون لها ولد لترسله في أغراضها. فجاءت إلى عند سوكو وقالت: أعطني ولداً. أجاب سوكو: لقد وهبت السلحفاة الحياة، ولكنني لم أبتّ في أنّه يجوز لها إنجاب الأولاد. وكان الأمر في ذلك الزمان أنّ البشر عندما كانوا يبلغون سنّ الشيخوخة يستعيدون شبابهم. ولكن لم يكن لهم أولاد.

عادت السلحفاة إلى سوكو وقالت: أعطني أولاداً. فأجاب سوكو: أنتِ تأتين تكراراً وتريدين أن أمنحك أولاداً. أتعلمين أنّ الأحياء، عندما يكون لهم ولدان أو ثلاثة، يُقضى عليهم بأن يموتوا؟ قالت السلحفاة: نعم. فإن حمّلت امرأتى، فأنا أودّ أن أموت.

ثمّ سأل سوكو البشر: هل تريدون أنتم أيضاً أولاداً، ثمّ تموتون؟ قال البشر: نريد أن نرى أولادنا ثمّ نموت. وسأل سوكو الحجارة: هل

تريدون أنتم أيضاً أولاداً، ثم تموتون؟ ولكنّ الحجارة قالت: لا، لسنا نريد أولاداً ولا أن نموت. قال سوكو: حسناً، فليكن الأمر هكذا. وقال سوكو للسلفاة: ليكن لك ما شئت. يمكنك أن تجعل امرأتك حاملاً. ولكن بعد ذلك ستموت. وجبّلت امرأة السلفاة، ولما دام حملها ثلاثة أشهر مات زوجها. وبعد ثلاثة أشهر من ممات زوجها وُلد أولادها. وبعد ثلاثة أشهر حبّلت زوجة الإنسان، ولكنّ زوجها بقي على قيد الحياة، ووُلدت الأولاد، وبعد خمسة أشهر من ذلك الميعاد مات. أمّا الحجارة فلم يكن لها أولاد ولا هي ماتت. على هذا النحو جاءت الأولاد ودخل الموت إلى العالم<sup>٣</sup>.

(٤) على كلّ حال إنّهُ من الأفضل للبشر وللمجتمع أن يموت الإنسان.

تروي قصّة من أفريقيا "أنّ الخالق فيدي موكلّو صنع جميع البشر والحيوانات والكلاب والماعز والدجاج. لقد صنع كلّ شيء، كلّ شيء، وكان أنّ الرجال والنساء يموتون عند بلوغهم سنّ الشيخوخة.

ذات يوم أخذ رجل طيلة خشبيّة وذهب إلى الغابة. هناك كانت شجرة جوفاء تصل أغصانها إلى السماء. فدخل الرجل إلى جوفها وضرب على الطيلة وشرع يغني: فيدي موكلّو، لقد صنعت كلّ شيء حسناً، ولكن لماذا قضيت بأن يموت البشر؟

<sup>٣</sup> - راجع رقم ١٩٥، ص ٤٥٣-٤٥٤ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.



وكان الرجل يغني هذه الكلمات كل ليلة. فسمعها فيدي موكلوا وقال: هناك رجل يغني كل يوم: فيدي موكلوا، لقد صنعت كل شيء حسناً، ولكن لماذا قضيت بأن يموت البشر؟ أنا لا أدري أين هو، فليذهب بعضهم ويبحثوا عنه. فذهب الناس وبحثوا عنه، ولكنهم لم يجدوه.

وغنى الرجل كل ليلة: فيدي موكلوا، لقد صنعت كل شيء حسناً، ولكن لماذا قضيت بأن يموت البشر؟ فأرسل الخالق النملة الحمراء، فانطلقت وشرعت تأكل وتأكل وتلتهم حتى وصلت إلى الشجرة. هناك وجدت الرجل، وذهبت به إلى فيدي موكلوا.

فقال فيدي موكلوا للرجل: ما بالك تغني كل يوم: فيدي موكلوا، لقد صنعت كل شيء حسناً، ولكن لماذا قضيت بأن يموت البشر؟ لماذا تنشد هذه الكلمات؟ أجاب الرجل: لقد خلقت البشر بحيث إنهم يموتون. وأنا إنسان وعليّ أن أموت. أفلا يحق لي على الأقل أن أنشد ليلاً أن عليّ أن أموت؟ فقال فيدي موكلوا للرجل: أنت على حق. يجوز لك أن تنشد على هذا النحو، فإني أجعل البشر يموتون. إنني أصنع البشر، أمّا البشر فيصنعون أدوات السحر، والأمراض والسكاكين، والسهام، والحرب. وبدون أدوات السحر، والأمراض، والسكاكين والحرب والممات لا تكون الحياة سوى أكل وشرب ونوم وهضم. بدون الموت لا يكون الوضع حسناً<sup>٤</sup>.

<sup>٤</sup> - راجع رقم ٢٠٤، ص ٤٦٢-٤٦٣ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.



#### ٤. الموت نتيجة الخطيئة القديمة

- ذكرنا في الفصل الرابع "الفردوس الضائع" أن بعض الأديان تعتبر خطيئة الإنسان الأولى سبباً لفقدان الفردوس، وتؤكد أن الموت نتج من هذه الخطيئة.

- ومن الروايات ما يذكر أن الموت قد أدخل إلى العالم في زمن لاحق، وذلك من جراء خطأ ارتكبه شخص وعُصمت نتائجه على البشرية جمعاء. وهذا الشخص الفرد يُعدّ ممثلاً للفساد العام المستشري بين البشر.

تروي قصة من ميلانيزيا أن امرأة صالحة طاعنة في السن ماتت ودُفنت. ولكنها نبشت قبرها بيديها وخرجت منه. وصادف أن ولداً كان ماراً. فقالت له: اجلب لي ناراً لكي أصطلي. ولكن الولد رفض ذلك، ولم يطع العجوز الصالحة التي حاولت إقناعه بدون جدوى. فأدّى ذلك إلى موت العجوز.

فلو أن الولد أطاعها، لما كنّا نموت نهائياً، بل لاستطعنا بعد دفننا أن ننبش قبورنا ونصطلي على النار ونعود إلى الحياة. ولكن لأن الولد ردّ طلب العجوز وعصاها، فإننا لا نعود إلى الحياة، بل نموت بلا رجعة<sup>٥</sup>.

#### ٥. الموت نتيجة تدخل إلهي

- من النصوص البابلية ما يؤكد أن التدخل الإلهي قضاء قدرته الآلهة

<sup>٥</sup> راجع رقم ٥٧، ص ١٨٧ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.

للإنسان بأنه عليه أن يموت، ويبقى الخلود احتكاراً عند الآلهة، هذا ما تكررّه ملحمة غلغامش: "إنّ الحياة التي تنشدّها، لن تستطيع أن تراها. فإنّه عندما خلقت الآلهة البشر، فرضت على البشر أن يموتوا، وأودعوا الحياة في أيدي أنفسهم.

- أمّا قصّة خلق الإنسان الأوّل أدايا فتقول إنّ التدخّل الإلهيّ كان في الموقف المعين غير مُصيب، فجرّ هذا الخطأ الموت إلى عالم البشر. أدايا هو الإنسان الأوّل ونصف إله. خلقه الإله إيا شديداً القوة والدراية والحكمة، وسلّمه السلطان على البشر، وقلّده خدمة الآلهة. فهو الإنسان الأوّل الكامل: الحكيم والمُلك والكاهن.

ذات يوم كان أدايا يصطاد السمك في البحر، وفجأة هاجت الريح الجنوبيّة صاحبة فأوشكت سفينة أدايا أن تغرق. ولكن أدايا احتدّ غضباً وكسر جناحي الريح الجنوبيّة، فهمدت سبعة أيّام لا تهبّ على وجه المنطقة. فلمّا علم بذلك كبير الآلهة آنو، أرسل إلى أدايا وأراد أن يحاسبه على فعله. هنا زوّده خالقه إيا بنصائح من شأنها أن تجنّبه غضب الإله الأكبر، فقال له أن يرتدي لباس حداد لكي يتشفّع فيه حراس الأبواب، وأن لا يأكل ولا يشرب، إذ سيقدّم له مأكّل مسموم وشراب مسموم. وتشفّع فيه حراس الأبواب، فعطف عليه الإله الأكبر وأراد أن يضيف إلى صفاته الكبيرة هبة الخلود. فقدّم لأدايا طعام الحياة، فلم يتناول منه شيئاً. وقدّم له ماء الحياة، فلم يشرب منه جرعة. ولكنّه ارتدى الملابس المقدّمة له ومسح ذاته بالزيت المقدّم له. ولما سأله كبير



الآلهة، لماذا لم يأكل من طعام الحياة ولم يشرب من ماء شراب الحياة،  
أجاب أن إيا ربّه نصّح له أن لا يأكل ولا يشرب.  
فخطأ الإله إيا هو أدّى إلى حرمان البشر من الخلود، والقضاء عليهم  
بالموت.

خلاصة العرض أن البشر حاولوا أن يشرحوا كيف دخل الموت إلى  
العالم وأن يتغلّبوا بذلك نوعاً ما فكرياً على الموت، إذ إن ما يمكن  
شرحه، يفقد سرّه المقلق. ولكن الموت يبقى في دائرة الحياة الواقعيّة  
مشكلة أليمة تحتاج إلى حلّ، إذ إن الموت، بالرغم من كلّ المحاولات  
التفسيرية، يظلّ في اختبار الإنسان أمراً يخالف شغفه بالحياة. وحتى بين  
محاولات الشرح العقليّ نجد قصصاً تؤكد أن الموت لم يكن في البدء  
نصيّاً محتمّاً وأنه مخالف للطبيعة. من هنا جهد الإنسان في البحث عن  
استرجاع الخلود أو الحصول عليه، أحصل ذلك بإطالة العمر إطالة لا  
تنتهي أو بالعودة المتواصلة إلى عمر الشباب.

### وسائل الحصول على الخلود

أكثر وسائل الحصول على الخلود لها طابع السحر. وهي إن كانت  
تستند إلى مفعول هذه الوسائل في الحفاظ على الصحة أو في استرجاع  
الصحة من مرض، إلا أنّها لم يتبيّن لها في خبرة البشر أنّها تنقذ نهائياً من  
الموت وتطيل العمر إلى ما لا نهاية له، أو تحافظ على الشباب إلى ما لا  
حدّ له.



## ١. ماء الحياة

(١) الماء رمز نشأة الكون، وإناء جميع البذور. هو يشفي، ويعيد الشباب ويمنح الحياة الأبدية. وأوّل شكل هذا الماء هو ما يُدعى "الماء الحي"، الكامن في السماء، وأمثاله على الأرض مثل السوما (في الهندوسية) وسواه. ويتفرّع عن هذه الفكرة ما يُدعى "الماء الحي"، ينبوع الشباب، ماء الحياة". هذا كلّه يعني أنّ في الماء الحياة والقوّة والخلود. ولكن ذلك الماء ليس في متناول كلّ أحد، ولا يُبلغ إليه بكلّ وسيلة. فإنّه تحرسه تنانين أو يكمن في موضع يعسر الوصول إليه، تتسلّط عليه الشياطين والآلهة. والطريق إلى منبعه والحصول على هذا الماء يتطلّبان طائفة من شعائر التكريس وطائفة من المحن<sup>٦</sup>.

(٢) إنّ شرب ماء الحياة أو التحمّم في ينبوع الشباب ينجم عنه الخلود أي استرجاع الشباب المتواصل. يقول كتاب ريغفيدا في الهندوسية عن شراب السوما، شراب الخلود: "لقد شربنا السوما، وصرنا خالدين. وصلنا إلى النور وبلغنا إلى عند الآلهة. فمن يلحق بنا إلى الشرّ، وما تهمّنا عداوة مائت، نحن الخالدين" (٨: ٤٨، ٣).

(٣) تروي لنا قصص الشعوب أموراً كثيرة عن الأبطال الذين قاموا بالبحث عن ينابيع الحياة وشراب الحياة. تورد مثلاً قصّة من إيران القديم

---

<sup>٦</sup> راجع:

Mircea Eliade, Die Religionen und das Heilige, Salzburg 1954, 223-224

أن الخضر "الدائم الشباب"، والاسكندر الكبير بحثا عن ينبوع الحياة في آخر الدنيا.

(٤) ونجد في الكتاب المقدس إشارات إلى ماء الحياة:

- مزمور ٣٦: ١٠: إنَّ عندك ينبوع الحياة. بنورك نعاين النور.

- يوحنا ٤: ١٣-١٤: فأجاب يسوع وقال لها (للسامريّة): إنَّ من يشرب من هذا الماء يعود فيعطش، وأمّا الذي يشرب من الماء الذي أعطيه إياه أنا فلن يعطش أبداً. بل الماء الذي أعطيه إياه يصير ينبوع ماء يتفجّر حياة أبدية.

- يوحنا ٧: ٣٧-٣٨: ... وقف يسوع وصاح قائلاً: من كان عطشان فليأت إليّ، ومن آمن بي فليشرب، فيأته كما قال الكتاب، ستجري من جوفه أنهار ماء حيّ" (قابل زخريا ١٤: ٨؛ يوثيل ٤: ١٨).

- رؤيا ٢١: ٥-٦: وقال الجالس على العرش: ها إني أجعل كلّ شيء جديداً. ثمّ قال: اكتب: إنّ هذا الكلام صدق وحقّ. وقال لي أيضاً: لقد تمّ؟ أنا الألف والياء، المبدأ والغاية؛ أنا أعطي العطشان من ينبوع الحياة مجاناً.

- رؤيا ٢٢: ١٧: الروح والعروس يقولان: هلمّ! ومن سمع فليقل أيضاً: هلمّ! من كان عطشان فليأت، من شاء فليأخذ ماء الحياة مجاناً.

## ٢. شجرة الحياة

كثيراً ما تربط النصوص بين ماء الحياة وشجرة الحياة. الرؤيا ٢٢: ١-٢، ثم أراني نهر ماء الحياة صافياً كالبلّور، خارجاً من عرش الله والحمل. وفي وسط ساحة المدينة وعلى جانبي النهر شجرُ حياة تؤتي اثني عشر جَنَى، في كلِّ شهر جنى، وورق الشجر لشفاء الأمم (قابل حزقيال ٤٧: ١ - ١٢).

(١) فكرة شجرة الحياة تابعة لقصص الشجرة كمحور الكون، تربط بين السماء والأرض وما تحت الأرض، منتصبة في وسط الأرض. وهي ترمز إلى التجدد المتواصل، واستعادة حياة الكون، والخصب الكوني، وبذلك تكون رمزاً للخلود.

يروى جرفاسيوس أن الإسكندر الكبير كان يبحث عن ماء الحياة، فعثر في الهند على تفاح قادر أن يطيل عمر الكهنة إلى أربع مئة سنة. وتروي القصص في اسكندينايا إن التفاح له القدرة على تجديد الحياة واستعادة شبابها. فالآلهة تأكل التفاح، وتبقى على شبابها، حتى انتهاء دورة الزمن الحالية.

## (٢) حراس شجرة الحياة

نصادف في تقاليد مختلفة مجموعة معينة: الإنسان الأول (أو البطل القلسم) باحثاً عن الخلود، وشجرة الحياة، والأفعوان أو التنين الذي يحرس الشجرة أو يمنع بحيلته الإنسان من الأكل من هذه الشجرة. ومغزى هذه المجموعة هو أن الخلود أمر يتعسر نيله. فإنه كامن في شجرة الحياة (أو



ينبوع الحياة) القائمة في مكان بعيد المنال (في آخر العالم أو في قعر المحيط، أو في بقعة الظلمة، أو في قمة جبل شاهق جداً، أو في "وسط" معين). والتين يحرس الشجرة، والإنسان الذي يدنو منها بعد أن يكون قد أثبت عزمه في مصارعات عديدة، عليه أن يُغالب التين ويفوز عليه ليستطيع الوصول إلى ثمار الخلود. فمغالبة التين تعني أن الإنسان عليه أن يمرّ في صراعات عديدة ليحصل على الحقّ في نيل الخلود.

### ٣. عقاقير الحياة

هناك بعض الأعشاب والنباتات لها في تقاليد بعض الشعوب قدرة شبيهة بقدرة شجرة الحياة، فيمكنها أن تعيد الحياة إلى شبابها وتهب الخلود. وهذه الأعشاب والنباتات موجودة مثل شجرة الحياة في مقاطعة بعيدة المنال، كالسما (كعشب الهوما في التراث الإيراني القديم)، أو في داخل صخرة (كما ذكرت ملكة سبأ لسليمان)، أو في قعر البحر (كما ورد في ملحمة غلغامش البابلية).

ثم إن عقاقير الخلود هذه يفقدها الإنسان تكراراً، ولو استطاع، بعد الفوز على محن كثيرة، الحصول عليها.

ولدينا مثال على البحث عن الخلود وعلى إمكانية الحصول على عقاقير الحياة في ملحمة غلغامش البابلية، نورد منها هنا المقاطع الهامة بالنسبة إلى موضوعنا.

في اليوم السابع أيقظ الإنسان القلسم أوتنابشتيم الملك غلغامش وأوماً إليه أن يغتسل ويرتدي ثياباً جديدة. ثم ودّعه قائلاً: أريد أن أكشف لك

عن سرّ. إنّها تنبت عشبة ذات أشواك كأشواك الورد. فإن استعطت أن تملك على هذه العشبة، فعُد هاتئًا إلى بيتك.

فانطلق غلغامش في طريق العودة. وفي وسط البحر قفز من الزورق وغطس حتّى عمق البحر إلى عند أبسو، إلى موضع الحياة المخفية. وجلب معه من هناك العشبة التي ذكرها أوتنابشتيم. واسم العشبة يعني "من كان هَرَمًا يعود فيصير شابًا". فعاد بها إلى الزورق ووصل بها إلى الشاطئ سالمًا، هامًا أن يرجع إلى مدينة أورك. فإنّه كان ينوي أن يوزّع العشبة في أورك على جميع السكّان لكي يستعيدوا عند الشيخوخة شبابهم ويُنقذوا هكذا من الموت.

وفي طريقه مرّ غلغامش ببركة ماء، وأحبّ أن يتحمّم فيها. فوضع العشبة إلى جانب ثيابه على شاطئ البركة وأخذ يتحمّم في الماء. فشمت حية عَرَف العشبة فتسلّلت إليها، فوجدتها عند ثياب غلغامش، فأخذتها وابتلعتها. وبعد بُرهة نزعَت عنها جلدها وجدّت شبابها. فلمّا عاد غلغامش من البركة وشرع في ارتداء ثيابه، لاحظ أن العشبة مفقودة. فاستشاط غضبه أولًا، ثمّ انتابه حزن شديد. فشرع يندب حظّه، إذ ضاعت له آخر فرصة لتجنّب الموت. وتبيّن له أنّه قام برحلته الشاقّة عبثًا. فعاد إلى أورك واحدًا من الناس الخاضعين للموت. فدخل المدينة باكيًا.

#### ٤. مفعول وسائل الحصول على الخلاص

تختلف في ذلك نظرة الشعوب، فالشعوب السامية تتطلّع إلى عمر مديد خالد. أمّا شعوب الهند واليونانيون فيتوقّون إلى شباب دائم يمكنهم من تذوّق أطيب الحياة والإفلات من طول عمر لا ينتهي.

## الحياة الأخرى

هناك أمل الإنسان وتطلّعه إلى أن لا يكون الموت المحتوم نهاية كلّ العمر والغوص في الفناء، بل أن يفتح أمامه مجال آخر للحياة وشكل آخر لها. من هنا اعتبار الموت ممراً، لا نهاية قاطعة، ممراً من حياة إلى حياة، من حياة الدنيا إلى حياة الآخرة.

وذلك لأنّ للإنسان روحاً لا تفنى مع فناء الجسد. ثمّ إنّ كثيراً من الشعوب تؤمن بقيامة الأموات، أي يبعث الأجساد وعودة الروح إليها. أمّا كيف تكون الحياة الأخرى، فهذا ما سنعود إليه في فصل لاحق.



## الفصل التاسع

### الحفاظ على الحياة وتحسين أحوالها

همّ البشر اليوميّ هو الحفاظ على الحياة ووقايتها من المخاطر التي تهدّدها، واكتساب القدرات المختلفة وصيانتها وتحسين إمكانيّاتها. من هنا الأوجه التالية لهذا الاهتمام:

#### ١. الحفاظ على الحياة

- تغطية الحاجات الأوليّة: المأكل والمشرب، والملبس والسكن.
- تنمية الزرع والنبات، وخصب الحقول والأشجار.
- صحّة المواشي وتكاثرها.
- وقاية الحياة من الأخطار، خصوصاً من المرض.
- الحصول على النسل، وحماية الملك والأسرة والقبيلة ضدّ المخاطر والأعداء.

#### ٢. تحسين أوضاع الحياة

- كثرة الأولاد ووفرة الغنى.
- الجاه وعلو المكانة.
- النجاح وحسن الحال.
- النصر على الأعداء.
- الملك والسطلة.

ولكنّ الإنسان يعلم أنّ هذه الأهداف لا يصل إليها بفضل قدرته الخاصة، لذلك نراه يلجأ إمّا إلى الآلهة والقوات العلويّة لاكتساب عطفها ومؤازرتها، أو يمارس أنواع الشعائر الطقسيّة التي من شأنها في اعتقاده أن تجعله يحصل على مبتغاه.

### الآلهة والقوَّات العلويّة

إنّ الإنسان كان يعي أنّه لا ينال مرامه من الآلهة والقوَّات العلويّة، إلّا إذا اطّلع على قدراتها وأطباعها وأشكال عملها. ولم يكن ذلك في كلّ الأحوال في متناول عقله. لذلك وجّه اهتمامه إلى معاملة الآلهة معاملة حذرة، فاستخدم الوسائل التي يراها قادرة على حمايته من سنخ الآلهة، وعلى اكتساب رضاهم فيميلون إلى معونته. وتناقلت الأجيال هذه التصورات وهذه الوسائل، للّجوء إليها عند بيان الحاجة.

#### ١. الشعائر الطقسيّة

إنّ القوانين التي يجب اتباعها لنيل رضى الآلهة والحفاظ على نظام الكون تتمّ ممارستها في الشعائر الطقسيّة. وهذه الشعائر تصل إلى هدفها، لأنّها في "عرف الناس" تعيد عملاً فعّالاً تمّت ممارستها في زمن الخلق الأوّل وتتناقل ذكره قصص الأجيال. فمثل هذه الأعمال تكون مثلاً وقاعدة للشعائر التي تمارس في الأزمنة اللاحقة.

بالنسبة إلى عدد كبير من هذه الشعائر لم يعد من الممكن اكتشاف

العمل الأوّل الخلاق منها، إذ ضاعت ذكراه على ممرّ الأيام. ثمّ إنّّه قد يحدث أن تكون هذه الشعائر من صنع البشر المباشر، ثمّ تناقلتها الأجيال وأسبغت عليها صفة القدّم.

## ٢. ميل الشعائر إلى السحر

عندما كان الإنسان يمارس الشعائر الطقسيّة للحصول على مبتغاه واكتساب رضى الآلهة، كان يرجو أن لا تخطئ هذه الشعائر مفعولها. وقد تطوّر الأمر عند بعضهم إلى ربط نيل المطلوب بفعاليّة الشعائر نفسها، دون إرجاعها مباشرة إلى قدرة الآلهة. من هنا الميل إلى الاعتقاد أنّ الشعائر قادرة على تحقيق الهدف بذاتها دون اللجوء إلى الآلهة، أو أنّها تُجبر الآلهة على خدمة مآرب البشر. وهذا هو عين السحر.

## وسائل الحفاظ على الحياة وتحسين أحوالها

### ١. ردّ العوامل المسيئة

- هناك في ممارسة الشعائر الطقسيّة وسائل لردّ العوامل المسيئة والقوآت المعادية، وذلك بدفع الشرّ وإضعاف صحّة الأعداء وقوّتهم.
- وهناك وسائل لطرد الحشرات الضارّة من الحقول، وطرد المرض والوباء، والعثور على الأشياء الضائعة.
- وقد تنجح ممارسات في نزع الشرّ والإساءة من عناصر الطبيعة ومظاهرها الضارّة، كالعاصفة، وكسوف الشمس ونخسوف القمر، والزلازل وما شاكل.



- وتساعد بعض الممارسات في درء النتائج المضرّة الناجمة عن ظواهر مقلقة، كمصادفة بعض أصناف الحيوانات كالبوم وابن آوى وغيرهما، أو سقوط آنية مقدّسة في أثناء الممارسة الطقسيّة.

## ٢. الحصول على نتائج إيجابيّة

- نورد على سبيل المثال ما جاء في الهندوسيّة القديمة حول الأهداف الصالحة التي يسعى المؤمن إلى الحصول عليها بفضل الشعائر الطقسيّة:
- السعي للحصول على الحظّ السعيد، والمنفعة والرخاء.
  - تكثير المال والمواشي، نصب البقر، سكن راضي، مريح في اللعب...
  - وقاية الصحة أو استرجاع الصحة، ازدياد القدرة وإطالة العمر، والسلامة في السفر.
  - النصر، والتأثير والجاه، وأيضاً الحصول على الوفاق.
  - حصول الرجل على نسل وظفر وتأثير وجاه، وقطعان، ومال، وزوجة، ومطر، وازدهار<sup>١</sup>.

## ٣. شروط نجاح الشعائر

(١) استعمال موادّ وعبارات مشحونة بالقدرة

<sup>١</sup> - Jan Gonda, Die Religionen Indiens I, Stuttgart 1960, 111-112

- تُعدّ أنواع عديدة من النبات مشحونة بالقدرّة، فتستعمل للشفاء، أو للإساءة إلى الخصوم.
- الدم، والبول، والعرق، والشعر، والجلد: كلّها تُعتبر مشحونة بالقدرّة.
- النّفس والكلام المستعمل للّعنة، أو أصوات مقدّسة مستغلّة، وعبارات مختلفة.

(٢) تفسير فعاليّة الشعائر السحرية  
أهمّ المبادئ لتفسير فعاليّة الشعائر السحرية هي التالية:

#### ١- التشابه

- تشابه أمرين يُعدّ علاقة قربي أو تماهٍ بينهما. فمن سكب ماءً من إبريق مثلاً، يستطيع أن يجلب مطراً من السماء.
- هناك تماهٍ بين شيئين ينتج عنهما مفعول متشابه. مثّل ذلك التماهي بين سمّ الثعبان والنار، وكلاهما يُحرقان، أو من أحسن حُلبَ البقر استطاع أن يجلب من الطبيعة ما يشتهي.
- هناك تشابه وتماهٍ بين مظاهر طبيعيّة ونفسيّة، وبين هذه التفسيرات الدينيّة.

#### ٢- الجزء بديل الكلّ

- الصورة تماهي الشيء.
- إن كان شيان يتماهيان شيئاً ثالثاً، أمكن وضع أحدهما موضع الآخر.

## بعض الأمثلة

أهمّ الأمثلة المنتشرة لوسائل الحفاظ على الحياة وتحسين أوضاعها، الصلاة وبعض الشعائر الطقسية.

### ١. الصلاة

هي أكثر أشكال الشعائر انتشاراً، فيتجه الإنسان إلى الآلهة أو إلى الله للحصول على نعمتهم، فيتوطّد رجاءه بتأمين الحفاظ على الحياة وتحسين أحوالها. نورد هنا بعض الأمثلة من تراث الشعوب.

#### (١) بابل

المصلي يشكو همّه للإلهة إشتار، ويقول إنّه قد دهمه المرض، والوهن والدمار، والفناء، والفاقة، وانصراف الوجه الإلهي عنه، وتفاقم الغضب والرجز، وغضب الآلهة والبشر، وإنّه قد خبر أياماً حالكة وشهوراً مظلمة، وسنين من الإخفاق، والضياع والاستياء، وإنّه قد انقضّ عليه الموت والعوز، ثمّ يؤكّد أنّ بيته قد صار خراباً وأن نسله قد انقرض. وفي نصّ آخر يطلب المصلي الإشفاق على جسده الشقيّ، المليء بالضياع والفوضى، والرحمة لبيته الواقع في الضيق الذي يرفع الشكوى. أو يشكو المصلي من أنّه قد أقعده الشيطان، ووجع الرأس، والألم والحمّى، وأن قدرته الجنسية قد غاضت، وأنّه قد شلّه وضربه السحر.

#### (٢) أفريقيا

- يُطلب إلى الله المطر، ونمو الزرع، والصيد الناجح، والحماية في



السفر وفي الغربه وفي لقاء المجهولين، وحسن التفات شيخ القبيلة، وكذلك البركة في الولادة والزواج...

- هناك صلوات يُطلب فيها العون في أيام الحرب، وفي أيام الجفاف، والمرض أو العقم.

- نورد الآن صلاة من قبيلة إيفي يوجهها الصياد إلى القمر عندما يخرج للصيد:

أيها البدر، امنحني أن أجد طريدة أستطيع أن أصطادها في هذه الأكمة. إني أطلب إليك بإلحاح. عندما كان إخوتك الآخرون مكتملين، أنقذوني إلى بقعة الصيد هذه وبحثوا لي عن طريدة، لكي أصطادها. لا تسمح بأن تمر غزالة ساحرة أن تتعرض لبندقيتي، ولا تسمح أن أصيب إنساناً.

أيها النجم الذي يقوم الآن، دعني أرى كبشاً. أيها النجم الذي يقوم الآن دعني أبحث بهذا القضيبي عن غذاء النمل...

أيها النجم الذي يقوم الآن، أود أن أرى غداً ذئباً أرضياً. دع الكلب يقتله، ودعني أكل من لحمه، واملاً بطني، لكي أستلقي في الليل وأنام<sup>٢</sup>.

(٣) وفي صلاة المسيحي "أبانا" هناك التماس من الآب السماوي، أن "أعطنا خبزنا كفاف يومنا".

## ٢. شعائر مختلفة

نورد هنا بدلاً عن الكثير في الأديان المختلفة أمثالاً من أفريقيا تتعلق بطلب كسب العيش، وغيرها من مناطق مختلفة ترمي إلى الشفاء من المرض.

## (١) كسب العيش بواسطة الصيد

الصيد لا يعني الجهد الجسدي والعناء في ترقب الطريدة ومغالبتها. بل هو أيضاً لقاء مع قدرات شخصية أو غير شخصية قد يكون لها تأثير في الصياد أو في تصرف الطريدة. من هنا القيام بالشعائر الوقائية والشعائر المتعلقة بمباشرة الصيد والشعائر التي تلي رمي الطرائد وصيدها. - على الصياد أن يستعد للصيد بالتحمّم، والتطيّب وسكب مسحوقات سحرية، ورسم ألوان على جسمه، وقص الشعر أو إسدال الشعر، وتناول أطعمة معينة. تلي ذلك ألوان من الرقص الطقسي. - اعتزال عن الحياة المعتادة، ومنها عدم القيام بالأفعال الجنسية. وهذا لتوفير الهدوء ودفع الأخطار.

هدف هذه الأفعال هو توفير قدرات فائقة للصياد، بحيث يمكنه أن يتحوّل إلى شخص آخر أو أن يقي نفسه المخاطر بتبديل لونه. ثمّ تحبّ تنحية ما من شأنه أن يضعف قوة الصياد، مثلاً أن يكون بينه وبين آخرين في القبيلة خصومة أو أسباب ثقيلة.

- على الصياد عند عودته أن يقوم بمراسيم تنزع عنه إحرامه وتعيده إلى الحياة المعتادة، وذلك مثلاً بأن يطلي وجهه وأعضائه ويغتسل

ويتناول طعامًا يمزج فيه الساحر الشافي عقاقير متنوعة<sup>٢</sup>.

## ٢) الشفاء من المرض

### ١- تشخيص المرض

إنَّ الشعوب البدائية تُعيد حلول المرض إلى أسباب مختلفة:  
- السحر، أي أن يكون المريض قد دهمه مفعول سحر استخدمه أعداؤه.

- تعدي القوانين أو ارتكاب المحرمات. فيكون المرض عقابًا من قبل الآلهة.

- ضياع النفس التي تغادر الجسد في النوم ولا تعود تجد طريق العودة إليه، لأنها أضاعت حسن التوجه، أو لأنَّ الشياطين تبعدها عن مقرها، أو لأنَّ أرواحًا ما اختطفتها.

- وقد يكون المرض نتيجة عمل أرواح شريرة وشياطين.  
في غالب الأحيان يتمكن العراف من تحديد سبب المرض وإقرار طريقة معالجته.

### ٢- معالجة المرض

- تعدي القوانين وارتكاب المحرمات يعالج بشعائر الكفارة، على رجاء أن الإله الذي أحلَّ العقاب بالمريض يرفعه عنه، فيعود المريض إلى

<sup>٢</sup> راجع ص ١٩٩ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.



الصحة. وسنعود إلى شعائر الكفارة في الفصل المخصص للبحث في الخطيئة والغفران.

- والمرض الذي هو نتيجة سحر يُعالج باستخدام أدوات أشد فاعلية. هنا تبرز أنواع السحر بمعارف طبية ثابتة، فإن المعالجة بالعقاقير تستند في بعض الأحيان إلى اختبار مفعولها الطبيعي. ولكن هذه العقاقير والأعشاب الشافية تزداد قدرة على الشفاء إن هي أُخضعت لأقوال سحرية. مثل ذلك ما ورد في نص من مصر القديمة يُتلى عند قطف مثل هذه الأعشاب وتذكر فيه مجموعة من الآلهة: "أنتِ زرعك كرونس، وتقبّلتك هيرا، وحفظك آمون، وولدتك إيزيس، وغذاك إله المطر زويس. بفضل الشمس والندى نموت. أنتِ ندى جميع الآلهة، قلب هرمس، وزرع الآلهة الأول، عين الشمس، وضوء القمر، وكرامة أوزيريس، وحسن السماء وبهاؤها..."

مثل هذه الأعشاب المستخدمة بقدرة الآلهة، لا بدّ أنّها تساعد في معالجة المرض وشفائه.

- عندما ينجم المرض عن عمل أرواح خبيثة تستولي على المريض، فعندها ينفع القيام بشعائر طرد الأرواح. وإن كانت الأرواح من النوع المصرّ، فيجب أن يتدخل المختص بمناجاة الأرواح ومراسيم طردها من المريض.

يبدأ الأمر باستعمال بخار أو دُخان، يتلوها الموسيقي والرقص. ويُستدرج الروح لأن يصعد إلى رأس المريض. ثمّ تقدّم هدايا وذبائح، دجاجة مثلاً أو معزة. وقد تدوم المحاولة حتّى سبعة أيام. ومن أهمّ

المراحل أن يُدلي الروح باسمه. فبذلك تكون قدرته قد قُصفت، ويتمّ شفاء المريض<sup>٤</sup>.

- أمّا إذا كانت النفس قد غادرت الجسد، فيشفى المريض إن هي أُعيدت إليه. وتتألف حفلة المعالجة من الخطوات التالية: يدعو الشمان الأرواح التي تحامي عنه، فيجلس أحدها إليه. ويدلّه على سبب المرض وعلى موضع النفس التي غادرت الجسد. ويدعو الشمان أرواحاً أخرى مختلفة، فتأتي إليه وتمسك بنفس المريض. ويطرد الشمان بعون الأرواح المجتمعمة الشيطان الذي تسلّل إلى المريض ويعدّه إلى مكانه... ثمّ يعيد الشمان نفس المريض إلى جسده.... أخيراً يشكر الأرواح مساعدتها له<sup>٥</sup>.

### ملاحظات ختامية

١. لم نأت وما كان من غرضنا أن نأتي على ذكر جميع الوسائل المستعملة للحفاظ على الحياة وتحسين أحوالها. ولكنّ الأمثال التي أوردناها تدلّ على المفاعيل الأساسية التي يتوخّاها الإنسان في الوسائل التي يستخدمها.

٢. ولكن الإنسان سريعاً ما يختبر أنّ القوّة السحرية التي يدعو ويحاول تسييرها وفق مبتغاه لا تملك قدرة مطلقة. وكثيراً ما تبقى بلا

<sup>٤</sup> راجع ١١٣-١١٤ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.

<sup>٥</sup> راجع وصفاً مفصلاً لجلسة معالجة في:



جدوى. من هنا محاولة تقديم أسباب لهذا الإخفاق: بأن يقال إن طلب المساعدة جاء متأخرًا عن مواعده الصحيح، إذ تكون النفس قد أحكم القبض عليها في عالم الآخرة؛ أو إنَّ القوات المعادية (مثل السحرة وغيرهم) كانت متفوقة في قدرتها وسباقها في مواعيدها، أو إنَّ المريض أو أحد أقاربه تعدى المحرمات؛ أو إنَّ الله قد أراد هذا الإخفاق<sup>٦</sup>.

٣. ثمَّ إنَّ إرجاع المرض إلى أحد أسبابه المذكورة أعلاه، مهما كان نوعه، يُعدُّ وسيلة للتغلب على حتميته وسره المقلق، وبذلك وسيلة للتغلب على الألم المرافق له، ولو كان ذلك ذهنيًا، ولتمكين المريض وأهله من تحمّل آفاته بعض الشيء.

٤. هناك في تراث الشعوب نوع خاص من المرض والألم، هو ألم البارِّ وألم غير المذنب. فمن حصيلة القصص المتعلقة بآلام أحد الآلهة أو المخلص وموته وقيامته تأكيد بأنه ليس هناك من ألم نهائي، وأن الموت تعقبه القيامة، وأنَّ الإخفاق يتبعه النصر والنجاح.

٥. وكلَّ شفاء لمرض وكلَّ تغلب على ألم يعدّه الإنسان من مفاعيل قرب الله، وعلامة تجعله يوقن بأنَّ الله يُنعم برضاه ويظهر مشيئته الشافية. فيكون من ثمَّ مدعاة للرجاء في حصول استعادة عالم سليم.

٦. أخيرًا، وإن لم يحصل الإنسان على شفاء مرضه، فإنَّه يمكنه في حال من أحوال الروحانية أو في تعبير عن استسلام محبٍّ، أن يتحمّل عبء المرض ويتغلب عليه روحياً.

<sup>٦</sup> راجع ص ١٠٧ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.



## الفصل العاشر

### التناسل وتفتح الحياة

إنَّ الإنسان الذي يختبر في حياته وحياة البشر أنَّه لا يفلت من الموت، لا يحاول فقط أن يتمسك برجاء استعادة عمر الشباب أو أن يتعلّق بأمل الحصول على خلود ليس في متناول يده. بل يقينه يشتدّ حزمًا بأنَّ ديمومة الحياة ستتحقق بعد الممات الجسديّ في رحاب الآخرة. فلا يبقى له على هذه الأرض سوى إمكانيّة الحفاظ على الحياة، لا على الحياة الفرديّة بل على الحياة إجمالاً، بواسطة التناسل.

كان البشر في العصور القديمة ولا يزال كثيرون منهم في عصرنا يعدّون إنجاب حياة جديدة حدثًا تُحيط به غوامض الأسرار. ففي الخصب الجنسيّ تنجلي لهم القدرة المقدّسة من جانبها الصالح وفي الوقت عينه من جانبها المُحاط بالأخطار. زدْ على ذلك أنَّ الحياة الجنسيّة ليست مجرد عمل بيولوجيّ، بل تكمن فيها ناحية كونيّة، فهي من ثمَّ جزء من النظام الكونيّ.

أهمّ مراحل الحياة الجنسيّة هي الولادة والمراهقة والزواج. هذه تُدعى منازل أزمات الحياة البشريّة التي يجب فيها طرد ما يحيق بها من عوامل شريرة وتقوية ما يرافقها من قدرات الخير. وهذا لا يستطيع الإنسان أن يقوم به من دون اللجوء إلى الله أو الآلهة.

## الولادة

### ١. الولادة تجلي القدرة المقدسة

عند كل ولادة يرى الإنسان نفسه مواجهًا القدرة المقدسة. من هنا نشوء فكرة مصدر الإنسان من مكان آخر، مثلاً من جبل أو صخر، من الماء أو من الشجر. هذا يتحقق في أكثر الأحيان في الرجال العظام كالملوك وسواهم.

وقد لا تعتبر الولادة بدء الحياة، بل عودة الحياة، فالولادة والموت لا يفترقان. والشعائر التي ترافق الولادة تشبه في بعض نواحيها تلك التي تتعلق بالموت. تقول الروايات في مناطق من أفريقيا الشرقية عن ولادة السقط أو ولادة الميت أنه "قفل راجعاً".

### ٢. الشعائر التي ترافق الولادة

(١) هناك شعائر تتعلق بزمن الحمل، وهي ترمي إلى إثبات حمل لا تعقيد فيه وتثبيت صحة الولد.

(٢) أمّا الولادة نفسها وزمن نقاهة الأم فتحاطان بشعائر من شأنها إقصاء القوات الشيطانية والمؤذية من الولد وأمه وتسهيل عملية الولادة. مثل ذلك مسح المكان بالزيت، وإشعال النار، وحل جميع العقد في البيت.

(٣) ثم إن المرأة التي ولدت تُعدّ في حالة النجاسة، أي أنّها فقدت قدرتها أو وقعت في حوزة قدرة غريبة مليئة بالأخطار.

(٤) هناك طقوس تتعلق بقيام المرأة النفساء، وخروجها الأوّل إلى ساحة الحياة العامّة، وأوّل طعام يقدم للطفل وما شاكل.

(٥) أمّا ما يتعلّق بالولد نفسه فإنّه كان يوضع على الأرض ليُوكل إلى حماية الأرض أم الحياة. أو كان رجل، كما كان جارياً عند اليونانيين، يحمل عارياً الطفل ويدور به حول الموقد ليودعه قدرة النار.

(٦) نورد الآن مثلاً عن الشعائر المعروفة في الهندوسية: عندما يولد ابن، فعلى الأب أن يوقد النار ويجلس الولد في حضنه، ويقدم قرباناً حلياً فاتراً ممزوجاً بالزبدة، وينطق برجائه في أن يجلب ذلك الرغد لنفسه ولنسله ولحيواناته، ويلتمس من إله النار أغني أن يكفر عن سيئاته، ويعلن أنّه يقدم ذبيحة قدرات حياته الشخصية.

ثم يهمس في أذن الولد لفظ "كلمة" ويجعله يلحس في ملعقة ذهبية حلياً فاتراً وعسلاً وزبدة مذوّبة، ويعطيه اسماً سرّياً، ويلقيه على صدر أمّه وهو يتلفظ ببعض الأدعية<sup>١</sup>.

### ٣. الشعائر تؤكّد حصول الولادة وتهدف إلى تزويدها بالقدرة

(١) حيث لا تُقام الشعائر المرافقة للولادة، لا تعدّ الولادة حاصلة

<sup>١</sup> راجع: Jan Gonda, Die Religionen Indiens I, Stuttgart 1960, 118



نهائياً. هذا يعني عند بعض القبائل أن قتل الطفل لا يُعتبر قتلاً حقيقياً، بل إرجاع حياة لم يؤكد حصولها.

(٢) ثم إن الولادة هي فقط بدء تفتح الحياة وتسلم القدرة. لذلك يجب أن يُحاط الولد في أطوار نموه بشعائر جديدة من شأنها أن توطد القدرة المعتلنة فيه. ففي الصين مثلاً يُعرف ما يسمّى "العبور في الباب": هنا ينصب باب في وسط الغرفة، ثم في زوايا الأربع فيجوز الكاهن والوالد والأولاد في هذا الباب كل سنة مرة، أو بعد مرور ثلاث أو ست سنوات حتى انتهاء مدة الطفولة. ويمارس هذا الطواف عندما يمرض الولد عدّة مرّات في السنة أو في الشهر. وهدفه أن يمكن الطفل من ملازمة القدرة كيلا تضعيف قوته

## المراهقة والتنشئة

### ١. أنواع الشعائر

تحصل في زمن المراهقة طائفة من الشعائر هدفها تنشئة المراهق ومرافقة عبوره من سن الطفولة إلى اكتمال السن. هناك ثلاثة أصناف من شعائر التنشئة:

(١) طقوس جماعية ترافق العبور إلى اكتمال السن، وهي مُلزِمة لجميع أعضاء القبيلة، منها طقوس المراهقة، والتنشئة على قواعد حياة القبيلة، والتنشئة وفقاً للأعمار.

(٢) طقوس للالتحاق بجماعات سرّية أو اتّحادات أو أخويّات لا تسمح بالالتحاق بها إلّا لجنس واحد (رجال أو نساء) أو تحافظ على تقاليد سرّية.

(٣) تنشئة على أساس دعوة روحانيّة إلى ممارسة وظيفة خاصّة مثل الطبيب الشافي أو الشمان، دعوة لا يتلقّاها سوى عدد صغير من الأشخاص.

نتوجّه الآن إلى الطقوس الجماعيّة الملزمة لأعضاء القبيلة.

## ٢. طقوس المراهقة

(١) طقوس المراهقة ترافق عبور الولد من طور الطفولة إلى طور اكتمال السنّ. لذلك تعتبر ولادة جديدة. فعند الشروع في إتمام الطقوس المحدّدة تُعتبر الطفولة قد زالت ورفع المسؤولية عن الولد قد انتهى. فهو الآن مسؤول عن أعماله. فإنّه في زمن الطفولة لم تكن عليه واجبات، ولا كان مسؤولاً عن خطيئ، ولا أخضع لتحريم بالنسبة إلى المأكّل والمشارب، أو إلى حدّ في حرّية الكلام والتعبير، ولم تكن أكاذيب صادرة منه تستوجب العقاب.

(٢) طقوس المراهقة توجّه اهتمام الشاب أو الشابة إلى تعاليم الجماعة الدينيّة.

١- القبول في تدريس التعاليم الدينيّة ترافقه مراسيم من شأنها أن

تؤكد أهمية التنشئة الدينية. نورد هنا مثلاً متّخذاً من النصوص الهندوسية:

- يقصّ الشعر أولاً، ثمّ يغسل الطالب، ويزيّن ويلبس ملابس جديدة. ثمّ يقوده والده إلى مدرسة المعلم، وذلك في نصف الشهر الموافق لنموّ القمر وتحت علامة موافقة في سماء النجوم.

- ويبدأ استقبال الطالب من قبل المعلم بتقدمة (وهي عبارة عن صبّ دهن في النار)، فيما الطالب يمسك بيد المعلم. ثمّ يلبس المعلم طالبه رداءً جديداً وحزاماً يهدف إلى حماية الطالب من القوّات الشريرة ويصل بين الطالب ومعلمه في إطار ولادة جديدة رمزية.

- وهناك طائفة أخرى من المراسيم التي من شأنها أن توثق العلاقة بين المعلم والطالب.

٢- التدريس يحتوي على التعاليم الهامة من الإيمان وعلى المراسيم الدينية المتبعة في الجماعة.

- هنا تُشرح للطالب آداب المعاشرة والسلوك والوظائف بين البالغين. ويُلقن قصص القبيلة وتراثها المقدّس، وأسماء الآلهة وتاريخ أفعالها، لاسيّما تلك القصص التي تتعلّق بنشوء القبيلة وعلاقتها بالكائنات السماوية.

- وتُعرض على الطالب الأدوات المقدّسة لصور الآلهة وما شاكل.

- وتلحق بهذه التنشئة تلقين الطالب ما يتعلّق بالحياة الجنسية.

٣- هناك ممارسات مختلفة على الطالب أن يلتزمها: قواعد الهندوسية



مثلاً تسنّ للطالب أن يقصّ شعره بشكل معيّن، وأن يمارس العفة، وأن يمتنع عن النظر إلى امرأة عارية، وعن الاستحمام، وعن تناول أطعمة مالحة أو شديدة الحرارة، وعن الكلام عندما لا يُطلب منه التكلّم. وعندما يذهب إلى القرية عليه أن يتجنّب ما يمكن أن يعطّل درسه أو أن ينال من قداسة مسلكه (كالنظر إلى أناس قُطعت بعض أعضائهم، أو إلى لحم نيء، أو إلى امرأة نفساء)<sup>٢</sup>.

٤- وترافق التنشئة ممارسات مختلفة تُعدّ من نوع "الامتحانات":

- فراق الأمّ والانعزال في الغابة تحت مراقبة المعلم.

- كسر الأسنان.

- الختان.

- إسالة الدم من العروق.

- مراسيم ترمز إلى "موت" طقسيّ، منها كسر السنّ والختان،

وتناول الطعام بالفم دون استعمال اليد، دلالة على أنّ الطالب لا ينتمي

إلى الأحياء. وهناك طلي الطالب بالطين لكي يظهر بمظهر الأرواح. أو

تُبنى الخيم في الغابة بشكل تّين بحريّ يتلع الطالب ثمّ يُعيد ولادته أو

قيامته، عندما يخرج منها. وقد تُزاد موارد رمزيّة في قبر، أو يُطلب

التخلّي عن الأسرة، والاسم واللغة، فيضطرّ الطالب إلى تعلّم ذلك كلّ

من جديد. وقد تنزلق بعض هذه المراسيم إلى نوع من التعذيب.

٥- ويرافق ختام التنشئة عددٌ من المراسيم والشعائر الطقسيّة

الاحتفاليّة.

<sup>٢</sup> - راجع ص ١٢١ من الكتاب المذكور في الحاشية ٢.

## الزواج والممارسات الجنسية

### ١. الزواج

الزواج مرحلة تعني الانتقال إلى وضع جديد في الحياة وفي المجتمع. ففي ذهن الإنسان البدائي تكون قدرة الرجل على الإنجاب وقدرة المرأة على الحمل والولادة مظهرًا خطيرًا من مظاهر القدرة. لذلك يجب مرافقتها بمراسيم تدرأ مفاعيل الشر وتزيد مناعة القدرة في الإنسان.

#### (١) المراسيم الواقية

- لدفع خطر القوى الشريرة، جرت العادة عند البعض بنزع بتولية العروس قبل الجماع مع زوجها، وذلك بفعل رجل غريب أو أحد كهنة الآلهة المحليّة، انطلاقًا من أنّهما يملكان قدرة واقية كافية، أو أنّهما يستطيعان التعرّض للخطر دون أذى.

- أو تكتفي العادة بنزع البتولية وفقًا لمراسيم معيّنة. وهناك عادة بأن يُجمع بين المرأة وصبي غير قادر على الجماع الجنسي، أو يؤجل الجماع الزوجي أيامًا معدودة.

#### (٢) زيادة القدرة

إنّ دخول مرحلة الزواج وما يتبعه يعني ازدياد القدرة، وهذا يتطلب إحاطته بمراسيم معيّنة.

- في الهندوسية يتخاطب الزوجان: "أنا هنا وأنت هناك. هناك أنت وهنا أنا. أنا السماء وأنت الأرض"، وذلك لوضع حياتهما المشتركة في

معانقة السماء والأرض في زمن الخلق القديم التي كانت منبع ومنطلق كل شيء.

- في أفريقيا الغربية (في لوانغو) يقصّ الزوج والزوجة، وكذلك والدهما ووالدتهما، قطعة تبغ صغيرة في غليون، يجعلونه يدور عليهم واحداً واحداً. هذا رمز لتعاقد الجماعة، ومساندة للأفراد بفضل ارتباطهم بالجماعة.

- وكانت من عوائد الناس في روسيا أن العروسين يقضيان ليلة العرس في مستودع الغلّة، وذلك لتأمين حصول خصب العروسين.

- زدّ على ذلك عادة إقامة مراسيم يمارس فيه الجنس أو يتلفظ الحاضرون بعبارات جنسيّة، ذلك لدعم القدرة في الأسرة وانطلاقة الحياة الجديدة.

## ٢. الطاقة الجنسيّة والقوى الكونيّة

(١) في قصص بعض الشعوب يُعزى نشوء الكون إلى جماع جنسيّ بين السماء والأرض. وبما أن الإنسان البدائيّ كان يعتبر الكون كلاً جامعاً، فإنّه يعي نفسه كجزء من هذا الكون. فيكون لما يحدث في الإنسان وفي حياته أثر في أحداث الكون. من هنا الاعتقاد بأنّ الحيض والحمل والولادة عند المرأة قوى سحرية فعّالة، تقوم بواسطتها علاقة بين المرأة والقوى الكونيّة. وبالعكس هناك علاقة بين مجرى الكون وخصب الإنسان. فيحصر الإنسان اهتمامه بالحركات الكبيرة المليئة بالأسرار:



فالولادة، والحركة والتبدل، الصيرورة والفناء، كل هذا يعادل الولادة والعودة إلى بطن الأم.

(٢) من هنا تعدّ الممارسة الجنسية قوة سحرية لها أثر على خصب الطبيعة<sup>٣</sup>:

إنّ خصب المرأة يمكنه أن يساهم في دعم خصب الحقول.

- لتنشيط خصب الحقول كانت فتيات عاريات يتقلبن على أثلام الحقل. عند اليونانيين كان على فتيات عاريات مسدولات الشعر وعاريات الأقدام أن يمشين حول حقل معين لإفناء الزؤان.

- في أميركا الجنوبية تؤمن عشائر الجيبارو بأن النساء هنّ أثرّ إيجابي خاصّ على النبات. وفي خليج بنغاليا، في جزائر النيكوبار، يرى الناس أنّ البذار الذي تختاره امرأة حامل يأتي بغلّة غزيرة. ومثل ذلك يوكل هنود نهر الأورينوكو إلى النساء أن ييذرن بذار الذرة وأن يغرسن الجذور الصالحة للأكل. ونجد في جنوبي إيطاليا الاعتقاد بأنّ امرأة حاملاً تأتي بالخير في كلّ مهمّة، فما تزرعه ينمو نمواً موازياً لخصبها.

- في فنلندا ترشّ الفلاحات، قبل توزيع البذار، الحقل ببعض قطرات من لبن أثدائهنّ. يمكن تفسير هذا على عدّة أشكال: كتقدمة للأموات،

<sup>٣</sup> - راجع ما جاء في كتابي: عادل تيودر نحوري: الظاهرة الدينية ٢: اختبار الله في الخلائق، المكتبة البولسية، جونيه - لبنان ٢٠٠٦، ص ٦٠ - ٦٥.

أو كتحويل سحري للحقل الذي لم ينتج بعد غلته إلى حقل مثمر، أو فقط كعبارة عن التوازي بين الأم، المرأة الخصبة، والبذار.

(٣) من هذا الاعتقاد بأنّ هناك ارتباطاً بين الخصب البشري والأوضاع الكونيّة تنتج عادة إيكال مهمّة الاعتناء بالحقول إلى النساء. فإنّهن حاملات الحياة، يُشَبَّهَنَ بالحقل الذي يتقبّل الزرع ويخصب ويعطي الجنى. أمّا في القبائل التي تمارس الفلاحة والزرع والحصاد فيكون الرجل عامل الخصب، ويحلّ الإنجاب محلّ الحمل والولادة وتعلو أهميته.

### الشعائر المتعلقة بالأمور الجنسيّة

هدف الشعائر المتعلقة بالأمور الجنسيّة هو زيادة البركة وتنحية الأخطار.

#### ١. الشعائر المحيطة بالممارسة الجنسيّة

(١) هذه الشعائر تنطلق من أنّ النساء يحملن قدرة الحياة والخصب في الشعب، ويحافظن على هذه القدرة ويساهمن في تنشيطها بتقليم بتوليّتهنّ ذبيحة للآلهة في ما يُدعى "البغاء المقدّس". فيه يضحّين بطهارتهنّ إلى إله أو إلهة، يمثلها في الهيكل الكاهن أو الغريب. وهو في الأصل قيام بسحر جالب للخصب.

١- كان مركز "البغاء المقدس" في العصور القديمة في آسيا الصغرى وبابل. وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن كل فتاة بابلية كان عليها أن تضحّي بتوليبتها في هيكل إشتار.

إلى جانب هذا البغاء العام، كانت مهمة البغاء في الهيكل منتشرة. وكانت فتيات الهيكل في بابل يحملن لقب "قاديشتو" أي "المقدسات"، أو "حريمتمو" أي "المحرّمات المعزولات عن الحياة الاعتيادية.

من هناك انتشرت هذه الممارسات إلى سوريا وفينيقيا وكنعان وآسيا الصغرى واليونان وفارس وجنوبي الهند. وكانت تُدعى فتيات هيكل أفروديتي "الخادومات المقدسات".

وقد دخلت هذه الممارسة إلى دين العبرانيين وهيكل الله في أورشليم، ولكنها قوبلت من قبل الأنبياء بمقاومة شديدة. وكان من عمل الإصلاحات التي أجراها الملك يوشيا أنه طرد دور البغاء المقدس من الهيكل في أورشليم. وقد أمر سفر تثنية الاشتراع ٢٣ : ١٨ : "لا يكن من بناء إسرائيل بغي، ولا من بني إسرائيل مأبون".

٢- إن البغاء المقدس من حيث إنّه إعادة الزواج الكوني المقدس بين السماء والأرض أو استحضر الجماع بين الآلهة الذي نتج منه نشوء الكون أو دفعه إلى الانفتاح، يُمارس في الهندوسية بنوع خاص في مراسيم التانترية ويوصف في نصوص أغاما.

تُعدّ المرأة ممثلة لشاكتي أو دُرغا (زوجة الإله شيفا)، الأم القديمة. وتُلغى قواعد المسلك المتبعة في فئات المجتمع، فنجد هناك نساء من طبقات المجتمع المختلفة (أي نساء من طبقة البراهمة، وراهبات،



وراقصات، وبغايا وغسلالات، ونساء حلاقين، وفتيات من الطبقة الدنيا، وبنات رعيان أو عمّال في البساتين) يمثلن الإلهة. يجلسن مع الرجال في حلقة سحرية، عاريات، عليهن زينتهن. فُتلى عليهن كلمات التبريك السحرية، ثم يمارس الجماع. وقد أقرت بعض النصوص أن هذا الجماع لا يجوز ممارسته إلا بين رجل وزوجته.

وقد انتقل هذا الجماع المقدس من الهندوسية إلى التانترية البوذية<sup>٤</sup>.

(٢) تُفهم مراسيم "البغاء المقدس" في إطار الفكر القديم والتصورات السحرية بأنها اقتداء بالمثل القديمة التي تروي تفاصيلها قصص نشوء الخلق وتُعدّ شكلاً من تسليم الذات ذبيحة إلى إلهة الخصب. ثم تجدر الإشارة إلى أن بعض النصوص تحذر في كثير من الأحيان من سوء استعمال هذه الطقوس ومعاطاتها ذريعة لمجرد الحصول على اللذة الجنسية، "إذ إن البغاء المقدس في الهيكل أو البغاء عمومًا، الذي تخضع له الفتيات قبل زواجهن، يمثل الاتحاد الروحاني بالإلهة العظيمة، إلهة الخصب والحياة والحب. ويعبر عن التوق إلى اتحاد عميق مع الإلهة، وشوق إلى تسليم الذات، واندفاع إلى العشق الكوني وسعادة الخلق"<sup>٥</sup>.

<sup>٤</sup> - راجع:

Friedrich Heiler, Erscheinungsformen und Wesen der Religion, Stuttgart 1961 (1979), 243-244.

<sup>٥</sup> راجع ص ٢٤٤ من الكتاب المذكور في الحاشية ٤.

## ٢. شعائر الامتناع عن الممارسة الجنسية

شعائر الامتناع هي من نوع الطقوس التي من شأنها أن ترد الأخطار الكامنة في الممارسة الجنسية.

### (١) الختان

ذكرنا أن الختان إحدى الممارسات التي يخضع لها الطالب أو الطالبة في سن المراهقة. وهو مألوف عند عدد كبير من الشعوب. الختان يُعدّ إضعافاً للطاقة الجنسية، ولكنه يهدف إلى الحصول على حياة أشد قوة. فإن هذه التضحية تقدّم للمحافظة على قدرة الإنجاب أو قدرة الحمل والولادة، بعيداً عن المخاطر المحدقة بها.

### (٢) الخصاء

الخصاء يدلّ في تراث الشعوب على خوف الإنسان من عواقب الممارسة الجنسية. ثم إنَّ الخصاء يُعدّ مقدمة تضحية، كما يُنصّ عنه في الطقوس المتعلقة بآتيس وكياله. فالكهنة الخصيان يقدمون طاقتهم الجنسية على الإنجاب تضحية لإلهة الخصب والإلهة الأم.

### (٣) العفة

١- تؤكد نصوص كثيرة من مختلف الأديان أن الحياة الجنسية تجلب النجاسة، أي أنها تقرب الإنسان من المحرّمات الخطيرة والقوّات

الشيطنانية. ويمتزج فيها الخوف من سرّ طاقة الحياة والإنجاب، إذ إنّها تسبّب عند الرجل مثلاً ضياعاً لقدرة الذهن والجسد.

فمن أراد ملامسة ما هو إلهي ومقدس، عليه أن يجمع طاقات قدرته، فالعفة تشدّد عزيمة الإرادة وتقوّي الحرارة الباطنة.

العفة واجبة قبل كلّ ممارسة طقسيّة، وذلك بالنسبة إلى الكاهن كما بالنسبة إلى المشترك في الشعائر المتعلّقة بالتنشئة، وأيضاً قبل الانطلاق إلى القنص وصيد السمك وتعاطي الأمور المهمّة.

٢- وتفرض العفة بنوع خاصّ على الكهنة وخادمت الهيكّل. وبعض هياكل اليونانيّين كانت تفرض على الكاهنة أن تعيش في البتوليّة، وكانت تلك الكاهنات إمّا فتيات قبل سنّ الزواج أو نساء بالغات في العمر. أمّا الفستاليات في رومة القديمة فلم يكن عليهنّ أن يعشن في بتوليّة دائمة، بل كان بإمكانهنّ بعد انتهاء مدّة خدمتهنّ أن يتزوّجن. وكانت الفستاليات يُحطن باحترام خاصّ ويُمنحن حقوقاً خاصّة. أمّا نقض واجب العفة فكان يُعدّ إثماً جسيماً وتدنيساً للهيكّل واعتداءً على سلامة الدولة، فكانت الخاطئة تُدفن حيّة في حقل الإثم، وذلك لأنّ نقض العفة هذه لم يكن يُعزى إلى الأهواء البشريّة، بل إلى غضب صادر عن بعض الشياطين.

كذلك كانت كاهنات الهيل في مكسيك القديمة، أو فتيات الشمس في بيرو، عند نقضهنّ واجب الحفاظ على العفة، يُخضعن للقتل<sup>٦</sup>.

<sup>٦</sup> راجع ص ١٩٨-٢٠٠ من الكتاب المذكور في الحاشية ٤.



## الفصل الحادي عشر

### النجاسة وشعائر الطهارة

تعتبر الشعوب البدائية النجاسة حصيلة تعدي القواعد الطقسية والقوانين المسلكية التي تتعلق بأحكام التحريم. فليست النجاسة مبدئياً تابعة لمفاهيم الخير والشر، بل للسلوك وفقاً لقواعد معينة أو خلافاً لها. ذلك أن الإنسان عليه أن يحافظ على حدود التقرب من القدرات العلوية المقدسة لتجنب المضار التي قد تنبع من هذا التقرب. ويمكن هذه المضار أن تنال مصالح الإنسان الحياتية، وقد يصيبه من جرائها المرض أو الموت.

### أحكام التحريم<sup>١</sup>

تعدي أحكام التحريم يجلب غضب الآلهة أو الأرواح على المذنب، مما يقود إلى المرض والوباء والكوارث الطبيعية وانقطاع الذرية والموت، ويصيب ذلك كله أو بعضه المذنب أو أحد أنسابه.

#### ١. المحرمات الطبيعية

##### (١) المحرمات الموقّعة

– تجمع القدرة العلوية، ومن ثم وجوب المحافظة على أحكام

---

<sup>١</sup> – أنقل هنا ما أورده في كتابي: عادل تيودور خوري: الظاهرة الدينية ٢: اختبار الله في الخلائق، المكتبة البولسية، جونية – لبنان ٢٠٠٦، ص ٨ – ١٢.

التحريم، تحدث مثلاً في المريض والميت. ولذلك نرى بعض القبائل والشعوب تفصل المرضى والموتى عن الجماعة. فيحرّم مثلاً في مداغسكرو أن يلمس الميت أو ينظر إليه أو يتفوّه باسمه.

- والحياة الجنسيّة تعتبر مليئة بالقدرة وتُحاط بأنواع المحاذير. فيجب تجنّب القيام بأعمال مهمّة، مثال المباشرة بالقتال، عندما يكون الإنسان تدنّس بممارسة جنسيّة. أو يُحظر على الرجل أن يقرب امرأة في وقت حيضها. وقد تُبعد الحائض عن إقامة الشعائر الدينيّة. ومثل ذلك موجود في اليهوديّة (خروج ١٩ : ١٠)، وفي الإسلام (قرآن ٢ : ٢٢٢).

- ويُعتبر النوم للشبه بينه وبين الموت، من عوارض تجمع القدرة، ومن ثمّ تحيط به بعض قواعد التحريم عند بعض الشعوب.

- أخيراً تصيب أحكام التحريم المواقف التي ينجم عنها خطر على الإنسان. فالجنديّ محظور عليه أن يأكل ديكاً قتل في صراع الديوك. أو يُحظر في بيتٍ يحمل صاحبه سلاحاً أو له جولة قتال أن يذبح حيوان ذكر.

## ٢) المحرّمات الدائمة: وهي أنواع

- الأمكنة: الكهوف، والقبور، والأماكن التي تقطنها أرواح الشرّ.

- الأزمنة: منها الأيام التي تعتبر باعثة للخير أو للشرّ. فمنهم من يعتبر زمن تزايد القمر زمناً يجلب المنفعة، أمّا زمن تناقص القمر فيجلب بالعكس الضرر. ولدينا في مخطوط في المتحف البريطاني بلندن نصّاً



مصريًا قديمًا يفصل الأزمدة الطيبة والأزمدة السيئة: فهناك أيام لا يجوز فيها الاغتسال، وفي غيرها لا تجوز مغادة المنزل. وعند البابليين كان نصيب كبير من مساءلة العرافين يدور حول تعيين الشهر والنهار الموافقين للبدء في مشروع معين. ونجد مثل ذلك عند السلافيين والجرمانيين، ولا تزال بعض آثاره قائمة في الوقت الحاضر، فمنها تصنيف الأول من نيسان وآب وأيلول، والرابع والعشرين والتاسع والعشرين من حزيران كأيام تجلب الضرر. ومنهم حتى اليوم يتجنب مباشرة السفر نهار الجمعة، ولا سيما إن وقع نهار الجمعة في الثالث عشر من الشهر.

— الأشخاص: من الأشخاص المحرمة على المعاملة الاعتيادية الملك، فلا يجوز التقرب إليه دون حذر، ولا يجوز لمسه والنظر إليه مباشرة ومخاطبته. ولا يجوز في بعض المناطق أن يطأ الملك الأرض بقدمه، خوفًا من إلحاق الأذى بالأرض؛ من هنا العادة المعروفة التي تقضي بحمل الملك أو بجعله يخطو على بساط. وفي بعض المناطق كان من واجب شيخ القبيلة الأكبر أن يتناول الطعام في الهواء الطلق، لئلا يلحق التحريم بأحد البيوت. ولم يكن يجوز أن يأكل مع شخص آخر من وعاء واحد. ولا أن يشرب من إناء قد يشرب منه آخر. وكان عليه عند الشرب أن يضع يده تحت ذقنه فيما كان يسكب الماء مباشرة في فمه دون أن تلمس شفاته الإناء. — وكان رأس الشيخ وظهره من المحرمات الخاصة. ولذلك كان من الواجب الصارم حفظ مشطه أو رباط شعره أو رداء كتفيه في مكان لا يصل إليه العوام. وعند بعض القبائل لمن يكن من



المسموح التكلم عن رأس الشيخ. وكان لمس هذا الرأس جريمة كان من شأنها أن تثير العداوة بين المعنّيين.

ومن الأشخاص المحرّمين الغرباء، والكهنة، والعرفّون وأطباء القبيلة.

- الأشياء: أهمّ الأشياء المحرّمة هي الأطعمة والأشربة. فاليهوديّة تحرّم أكل لحم الخنزير. والإسلام يحرم أكل لحم الخنازير وشرب الخمر. - وفي المجتمعات البدائيّة كان يحرم أكل لحم الحيوان الذي تنتمي إليه القبيلة. وهذا الحيوان كان يُعدّ أبا القبيلة، ولذلك كان من المحرّم التزوّج من أعضاء القبيلة، لأنّ ذلك كان يُعتبر بمثابة التزوّج من الأنسباء الأقربين. - ونذكر أخيراً من بين الأشياء المحرّمة التراب والرماد، والعفن والأقذار.

## ٢. المحرّمات الموضوعة

هناك محرّمات يحدّدها تدخّل من قبل صاحب سلطة، كالملك أو الكاهن. ولنا مثال على ذلك على ما نادى به ملك نينوى عندما سمع أقوال يونان النبيّ الذي هدّد بهلاك المدينة:

وبلغ الخبر ملك نينوى، فقام عن عرشه، وألقى عنه رداءه والتفّ بمسح وجلس على الرماد. وأمر أن يُنادى ويُقال في نينوى بقرار الملك وعظمائه: لا يذُق بشرٌ ولا بهيمة ولا بقرٌ ولا غنمٌ شيئاً، ولا ترع ولا تشرب ماء، وليلتفّ البشر والبهائم بمسوح، وليدعوا إلى الله بشدّة... لعلّ الله يرجع ويندم ويرجع عن اضطرام غضبه، فلا تهلك" (يونان ٣: ٦-٩).

وفي مانيبور في أسام يستطيع كاهن القرية أن يحدّد محرّمات. فتوصد أبواب القرية، فالصديق الذي لا يزال خارجاً، يبقى خارجاً، والغريب الذي لا يزال عَرَضاً في الداخل، يبقى داخلياً. والرجال يطبخون أنفسهم دون معونة النساء ويتناولون الطعام وحدهم. ويتجنّب الناس التجارة والصيد والقنص وقصّ العشب وقلع الأشجار.

ومن أندونيسيا لدينا نصّ يعلنه رسول الملك:

"محرم - لا يجوز لأحد أن يغادر البيت

محرم - لا يجوز لكلب أن ينبح

محرم - لا يجوز لديك أن يصيح

محرم - لا يجوز لخنزير أن يعرّ

محرم - ناموا، حتّى يمرّ المحرم.

### ٣. محرّمات لغويّة

هنا يحذّر الإنسان أن ينطق باسم شخص يعتبر مشحوناً بالقدرة العلويّة، مثل اسم الله. فيستعاض عنه بمفردة أخرى، مثلاً في العهد القديم: أدوناي، ربّ الخ. ومن المحرّمات اللغويّة استعمال لغة سرّيّة في أوضاع خاصّة. فعند المرور بشعار العبور من زمن الطفولة إلى المراهقة والشباب، تستعمل في بعض المناطق مثلاً في الكامرون، لغة خاصّة سرّيّة.

## ٤. تعدّي المحرّمات

(١) إنّ احترام قواعد التحريم تضمن للإنسان، في عقيدة الشعوب، رضى الآلهة وفلاح البشر. أمّا تعدّيها فيجعل الإنسان دنسًا، بمعنى أنّه فقد حال الطهارة الطقسيّة وأضحى عرضة للتصادم مع القوى العلويّة دون حماية فعّالة.

وتعدّي قواعد التحريم له عواقب مثل الكوارث الطبيعيّة والأمراض والأوبئة وانعدام الفرديّة، والموت. وتنزل هذه العواقب بالمدّنب كردّة فعل عفويّة. ولنا مثل على ذلك في حادثة رويت في سفر صموئيل الثاني (٦: ٣-٤، ٦-٧): "فجعلوا تابوت الله على عجلة جديدة، وحملوه من بيت أبناداب الذي في الأكمة، وكان عَزًّا وأحيو، ابنا أبناداب، يقودان العجلة، مع تابوت الله، وكان أحيو يسير أمام التابوت... فلمّا وصلوا إلى بيدر نكون، مدّ عَزًّا يده إلى تابوت الله فأمسكه، لأنّ الشيران كانت قد تعثّرت. فاشتدّ غضبُ الربّ على عَزَّا، وضربه الله هناك بسبب هفوته".

إنّ القدرة لا تسأل عن ذنب أو براءة ولا العقاب متعلّق بنية الفاعل. بل بالعكس يستخلص الناس من نزول العقاب أنّهم قد حصل تعدّد لقوانين التحريم.

(٢) والنجاسة لها طابع مُعدّ، فيعزل النجس من الجماعة حتّى يسترجع طهارته.



## إزالة النجاسة وشعائر الطهارة

النجاسة الناجمة من تعدي قوانين التحريم تعتبر قذارة تلتصق بالإنسان ويكون لها أثر سلبي في توازن الطاقات في الإنسان وفي الكون. أمّا إزالة النجاسة فيحصل بواسطة استعمال عناصر مشحونة بالقدرة والطاقة في إطار شعائر الطهارة.

### ١. النار

النار بقدرتها الهدامة، تفني أيضاً نجاسة الإنسان، وقد قال فيها بعض القدماء: "النار تطهر كل شيء" (أوفيد الروماني)؛ - "النار تطهر، والماء يقدس" (فلوطراخس الهليني).

(١) في عيد تحوّل الشمس عند الشعوب الأوروبية الشماليّة كان الناس والبهائم تعبر في وسط نار مشتعلة، وذلك للتطهير والتقديس. وكان العبور في وسط النار فريضة عند بعض الشعوب بعد دفن الأموات. ثمّ كانت الوالدة والطفل والدّاية يطهرون بطهوافهم عراة حول موقد المنزل.

وفي العهد القديم من الكتاب المقدّس نجد أمثلة على مثل هذه الشعائر: سفر العدد ٣٢: ١٩-٢٤: وأنتم فانزلوا خارج المحلّة سبعة أيام، كل من قتل نفساً وكل من لمس قتيلاً، وتطهّروا في اليوم الثالث وفي اليوم السابع أنتم وسيبيكم. وكل ثوب ومتاع جلد وكل ما صنع من شعر المعز وكل متاع من خشب تطهّرونه. وقال إيلعازر الكاهن

لرجال الجيش الذين ذهبوا للحرب: هذا رسم الشريعة التي أمر الربُّ بها موسى: الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص، كلُّ شيء يمكن أن يدخل النار تميزونه في النار فيطهر، غير أنَّه يتطهر بماء النضج. وكلُّ ما لا يدخل النار تميزونه في الماء. وتغسلون ثيابكم في اليوم السابع فتطهرون، وبعد ذلك تدخلون المحلَّة.

(٢) وتُعزى قدرة التطهير إلى مواد قريبة من النار مثل النور، والدخان والبخور، والكبريت.

(٣) وهناك النار المعادية التي تطهر الدنيا في آخر الأزمان وإن لم تقتصر على النجاسة الطقسية. هذا ما نجده في النصوص السبليَّة، وعند أوريجانوس. وقال فيها بولس الرسول: "فإنَّ عمل كلِّ واحد سيكون بيِّناً، لأنَّ يوم الربِّ سيظهره، إذ إنَّه سيَعْتَلَن بالنار، والنار ستمتحن قيمة عمل كلِّ واحد. فمن بقي عمله الذي بناه على الأساس فسينال أجراً. ومن احترق عمله فيسخس. أمَّا هو فسيخلص، ولكن كمن يمرُّ في النار" (١ كورنثس ٣: ١٣-١٥).

## ٢. الماء

(١) إنَّ ماء التطهير قد يُتَّخذ من نهر مقدَّس (كالأردن في فلسطين أو الغانج في الهند)، أو من بئر مقدَّسة (كبئر زمزم في مكَّة)، أو من ينبوع مقدَّس.

أمّا الماء الطبيعيّ فتزداد قدرته إن هو بورك وصار ماء مقدّساً، ومُزجت فيه عقاقير فعّالة. ولكنّه إن هو استعمل على حاله الطبيعيّة للقيام بالغُسل والتطهير، فهو قادر على نزع النجاسة. مثل هذا الماء يوفّر للزائرين عند مدخل المعابد والهياكل في كثير من الأديان (في مصر القديمة واليونان، ورومة، والإسلام).

وعُرف استعمال الماء المقدّس في الشرق المسيحيّ منذ القرن الثالث، وفي الكنيسة الغربيّة منذ القرن السادس. وتعزى إليه المفاعيل التالية: طرد الشيطان، تطهير الروح التائهة، ضبط القلب، مغفرة السيئات الطفيفة، الاستعداد الحسن للصلاة وتقبّل الأسرار، والعون في المرض وفي العقم.

## ٢) أشكال استعمال الماء

١- أكثر الأشكال شمولاً هو التغطيس في الماء أو الاستحمام - تفرض الهندوسيّة غسلاً كاملاً بعد كلّ نجاسة، وبعد النهوض من النوم، وقبل كلّ خدمة مقدّسة.

- وكان الغُسل والاستحمام فرضاً في شعائر إكرام الإلهة إيزيس في العهد الهلينيّ.

- كان على الكاهن الأعظم عند العبرانيّين وسائق كبش الخطاء في يوم الكفّارة أن يقوموا بالغُسل الكامل:

سفر الأحبار ١٦ : ٢٣-٢٨: ثمّ يغسل بدنه في موضع مقدّس، ويلبس ثيابه ويخرج ويقرب محرّقه ومحرقة الشعب ويكفّر عن نفسه وعن الشعب. وشحم ذبيحة الخطاء يقتّره على المذبح. والذي يُرسل تيس



عزازيل يغسل ثيابه ويرحض بدنه بالماء، وبعد ذلك يدخل المحلّ. وأمّا عجل الخطاء وتيس الخطاء اللذان أدخل دُمهما للتكفير في القدس، فلُيُخرجاً إلى خارج المحلّة وتحرق جلودهما ولحمهما وفرثهما بالنار. والذي يُحرقهما يغسل ثيابه ويرحض بدنه بالماء، بعد ذلك يدخل المحلّة. - وكان الغُسل بالاستحمام معروفاً عند الآسِنِيِّين.

- وكذلك يفرض الإسلام القيام بالغُسل الكامل للبدن عند كلّ جماع جنسيّ وفي حال حيض المرأة.

٢- الوضوء وسيلة للحصول على الطهارة في الأحوال التي لا تستوجب الغُسل الكامل.

- غسل موسى هرون وبنيه بالماء، قبل أن يلبسهم حلّة خدمة الكهنوت (أخبار ٨ : ٦-٧). وأمر الربّ، قبل هبوطه أمام الشعب على جبل سيناء، أن يغسل الشعب ثيابهم (خروج ١٩ : ١٠). وأوعز إلى موسى أن "قدّم هرون وبنيه إلى باب خباء المحضر واغسلهم بالماء" (خروج ٢٩ : ٤)، ذلك قبل شروعهم بالخدمة الكهنوتيّة. - وأيضاً: "اصنع مغتسلاً من نحاس مقعده من نحاس للغُسل، واجعله بين خباء المحضر والمذبح، واجعل فيه ماء، فيغسل هرون وبنوه منه أيديهم وأرجلهم، إذا دخلوا خباء المحضر، فليغتسلوا بماءٍ لثلاً يموتوا. وإذا تقدّموا إلى المذبح ليخدموا ويقترّوا وقيدةً للربّ، فليغسلوا أيديهم وأرجلهم لثلاً يموتوا" (خروج ٣٠ : ١٨-٢١).

- وغسل اليدين في المسيحيّة معروف في خدمة القدّاس لدى مختلف الكنائس.

- وفُرض الوضوء في الإسلام قبل الصلاة: "يا أيها الذين آمنوا، إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ..." (قرآن ٥ : ٦). أمّا حيثُ لا يوجد ماء، "فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ فِيهِ" (٥ : ٦؛ قابل ٤ : ٤٣).

- اليابانيون يغسلون فمهم ويديهم بالماء قبل الدخول إلى الهيكل.  
- وتُغسل الأدوات لتطهيرها وتقديسها: المذابح، وأرض المعابد، والجدران، وأدوات العبادة.  
- وتفرض الشريعة اليهودية غسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده.  
- وتُغسل أبدان الأموات.

### ٣- النُّضْحُ والرَّشُّ

- يروي هيبوكراتس (توفي ١٧٨ بعد المسيح): لقد حوَّطنا معابد الآلهة في حدود معينة، لئلا يتجاوزها من لم يتطهَّر. ثمَّ ننضح أنفسنا كاملاً عند الولوج، لا لأننا نثقلنا دين دم، بل لكي نستطيع، إن كان فينا عيبٌ ما، أن نتحرَّر منه".

فكان يوضع عند المدخل إناء مليء وضمة من أغصان الغار لينضح الزائر نفسه بالماء للتطهير. ومعروف عند اليابانيين النُّضْحُ بالماء الممزوج بالملح.

- ورد في سفر العدد ١٩ : ٩-١٣: "ويجمع رجلٌ طاهر رماد البقرة ويضعه خارج المحلّة في موضوع طاهر، ويكون محفوظاً لجماعة بني إسرائيل لأجل ماء النضح. إنَّها ذبيحة خطاء. والذي يجمع رماد البقرة



يغسل ثيابه ويكون نجسًا إلى المغيّب... من لمس ميتًا ما من الناس يكون نجسًا سبعة أيّام. ويتطهّر بهذا الماء في اليوم الثالث وفي اليوم السابع فيطهر. ... كلّ من لمس ميتًا جنة إنسان ميت ولم يتطهّر فقد نجس مسكن الربّ فتُقطع تلك النفس من إسرائيل إذ لم يُرشّ عليه ماء النضج، فهو نجس ونجاسته باقية فيه".

– ويُعرّف النضج في مراسيم التبريك المختلفة في الدين المسيحيّ.

### ٣) المعموديّة

تُعدّ المعموديّة بالماء من الشعائر الدينيّة المعروفة في عدد من الأديان. – كانت القابلة تعمّد الأطفال عند ولادتهم في المكسيك القديمة. – وكان الجرمانيون يعمّدون الطفل المولود جديدًا في ماء نهر شديد البرد.

– أمّا في الدين اليهوديّ لا يزال حتّى اليوم المريدون الانتماء إلى الجماعة، يعمّدون، وذلك قبل ختّانهم.

– والمعموديّة هذه كانت معروفة عند الشيع المسمدانيّة التي كانت منتشرة شرقي الأردن وفي شرقي جنوبي الأردن (كمعموديّة يوحنا، أو معموديّة المانويين).

– وتُعرف أشكال مختلفة من العمداد: العمداد بالتغطيس، والعمداد بالرشّ، والعمداد بمسح الجبين (في بعض الجماعات البروتستانتية الحديثة).



## (٤) تقييم مراسيم التطهير

١- وجهت الأديان المتطورة انتقاداً لفكرة الطهارة القائلة بأنها محو لنجاسة مادية تلحق بالنفس، وللاعتقاد بأن الاغتسال بالماء من شأنه أن يأتي بالطهارة بنوع تلقائي.

- صرح بوذا في خطاباته: "لماذا يستحمّ البراهمة ويرتجفون في الحمّام؟ أیظنون أنّهم بذلك يحصلون على الطهارة من خطاياهم؟ إن كان الأمر كذلك، فيجب أن يدخل السماء الضفادع والسلحفاة، وتكون جميع أفاعي المياه معدّة للحصول على السعادة" (تريغاتا ٢٣٦...).

"لا يطهر الإنسان بالماء، ولو أكثر من الاستحمام. إنّ من يقطن فيه الحقّ والفضيلة، هذا هو الطاهر" (أودانا ١ : ٩).

- وينادي إرميا النبي في العهد القديم من الكتاب المقدّس: "إنّك وإن اغتسلت بالنظرون واستكثرت من الأشنان، لا تزالين ملطّخة بإثمك أمامي، يقول السيّد الرب" (٢ : ٢٢).

٢- الغسل والنضح والعماد: ألفاظ تستعمل في لغة الرموز لتدلّ على نقاوة القلب الباطنة:

- إرميا ٤ : ١٤ : "اغسلي من الشرّ قلبك، يا أورشليم، لكي تُخلّصي".

- مزمور ٥١ : ٥ و ٩ : اغسلي كثيراً من إثمي ومن خطيئتي طهرني. انضحني بالزوفي فأطهر، واغسلي فأبيضّ أفضل من الثلج.

٣- وقد وردت في تراث المسيحية تفسيرات مختلفة لمفعول المعمودية:

- هي من شعائر التطهير، وذلك بفضل ارتباطها بعمل المسيح الخلاصي.

- والمعمودية من مراسيم التنشئة لتقبل المعتمد في صفوف جماعة المؤمنين.

- ويجتمع التفسيران في إطار مكانها من تاريخ الخلاص: فهي اشتراك في موت وقيامة المسيح، ومن ثم هي علامة الولادة الجديدة: "فلما تجلّى لطف الله مخلصنا ومحبة للبشر، خلّصنا، لا نظراً لأعمال برّ عملناها، بل بحسب رحمته، بغسل الميلاد الثاني والتجديد في الروح القدس" (تيطس ٣: ٤-٥). وهي أيضاً علامة الارتباط الوثيق بيسوع المسيح: "أم تجهلون أنا جميع من اعتمدوا للمسيح، قد اعتمدنا لموته؟ فلقد دُفنا إذن معه بالمعمودية للموت، حتّى إنّنا، كما أُقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب، كذلك نسلك نحن أيضاً في جدّة الحياة، لأنّا إذا كنا قد صرنا متّحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بشبه قيامته" (رومة ٦: ٣-٥). فالمعمودية المسيحية لها بُعدٌ معاديّ يلفت النظر إلى ما سيحدث في آخر الأزمان.

### ٣. الدم

(١) كان الجرمانيون يرشّون الدم على صور الآلهة، وجدران الهياكل وعلى المشتركين في مراسيم الذبيحة.

وفي أسطورة اليونانيين القدماء طهرت كيركي ياسون وميديا بعد مقتل أسيرتوس بدم خنزير صغير.  
ثم كانت معمودية الدم جزءاً من مراسيم العبادة في شعائر أتيس وكياله.

(٢) النضج بالدم معروف في مراسيم العهد القديم من الكتاب المقدس:

- تطهير البرص: "فيخرج الكاهن إلى خارج المحلة. فإذا نظر أن الأبرص قد برأ من بلوى البرص، يأمر الكاهن فيؤخذ للمتطهر عصفوران حيّان طاهران وعود أرز وقرمز وزوفى. ويأمر الكاهن بذبح العصفور الواحد في إناء خزف على ماء معين. ويأخذ العصفور الحيّ وعود الأرز والقرمز والزوفى وليغمس هذه مع العصفور الحيّ في دم العصفور المذبوح على الماء المعين، وينضح على المتطهر من البرص سبع مرّات ويطهره، ويطلق العصفور الحيّ على وجه الصحراء. ثم يغسل المتطهر ثيابه ويحلق جميع شعره: رأسه ولحيته وحواجب عينيه، وجميع شعره يحلقه، ويغسل ثيابه ويرحض بدنه بالماء فيطهر" (الأخبار ١٤: ٣-٩).

- مراسيم التطهير في يوم الكفارة: "ويقرب هرون عجل الخطاء الذي له ويكفر عن نفسه وعن بيته، ويذبح عجل الخطاء الذي له. ثم يأخذ ملء المِجمره جمر نار من فوق المذبح من بين يدي الرب وملء راحتيه بخوراً عطراً مدقوقاً، ويدخل بهما إلى داخل الحجاب. ويلقي



ذلك البخور على النار بين يدي الربّ حتّى يغطّي غيمُ البخور الغشاء الذي على الشهادة فلا يموت. ثمّ يأخذ من دم العجل فينضح بإصبعه على وجه الغشاء شرقاً، وينضح من الدم أمام الغشاء سبع مرّات بإصبعه. ثمّ يذبح تيس الخطاء الذي للشعب ويدخل بدمه إلى داخل الحجاب ويصنع به كما صنع بدم العجل ينضحه على الغشاء وأمامه، ويكفرّ على القدس نجاسة بني إسرائيل ومعاصيهم وجميع ذنوبهم" (الأخبار ١٦: ١١-١٦).

- وعند تأكيد العهد، "أخذ موسى الدم ورشه على الشعب وقال: هوذا دم العهد الذي عاهدكم الربّ به على جميع هذه الأقوال" (خروج ٢٤: ٨).

#### ٤. التقادم والذبائح

- تهدف التقادم إلى رفع غضب الله. ويقدم ما هو ثمين في عيني البشر مثل الثمار، والحلويات، والمشروبات، والزهور، والزينة، والأسلحة، والحيوانات.

- وكذلك تقادم الذبائح تعدّ وسيلة للتطهير. وكان يقدم دم حيوانات، أو دم إنسان: من ذلك ذبائح الأطفال أو العذارى، أو أسرى الحرب، أو الملك، ومنه ذبيحة النفس ذاتها كتقدمة سحرية.

وعرفت أنواع البديل عن ذبائح البشر بتقديم الحيوانات، أو بتقديم جزء من الجسد بدل الكلّ كقطع إصبع، أو حلق الشعر أو جزء من الأعضاء التناسلية.

- ثم إنَّ الزهد كان يعتبر مقدمة بديلة عن المحرقات الجسدية، وأشكاله المنتشرة هي ممارسة العفة، والامتناع عن الجماع الجنسي، والامتناع عن المأكَل والنوم.

### ٥. الصلاة

- يقدّم الإنسان في الصلاة اعتذاراً عن نجاسة، أو تبريراً لبعض أفعاله وذلك لإرضاء الله وتجنّب غضبه. من ذلك ما يقوله مثلاً الكاهن عند قبيلة أفريقية بالنيابة عن شخص آخر: "إنَّ هذا الرجل لم يكن على علم عندما تصرف خلافاً للشرعة. فارفع يدك عنه لكي يشفى من مرضه".

- وكثيراً ما لا يحاول الإنسان تقديم أعذار، بل يقرّ صراحة أمام إلهه بأنّه ارتكب خطأ. وبالإقرار بالذنب يرتبط طلب المغفرة، والعدول عن الغضب الإلهي، وتحديد الصداقة...

### خاتمة

إنَّ أحكام الطهارة، وإن كانت مبدئياً تتعلّق بالمحرّمات الطقسية، فإنّها نظراً إلى أنّها ترتبط بالله ومشيّته وتحاول نيل تغاضيه عن الخطيئة ورضاه، فإنّها مع مرور الزمن ما عتّمت أن اتّضح لها جانب أخلاقي يعود إلى التمييز بين الخير والشرّ وطاعة مشيئة الله أو عصيانه. ومنها تطوّر الإحساس بالذنب الأخلاقي والبحث عن وسائل تجنّب الشرّ ومسالك الإحسان واكتساب البرّ.

## الفصل الثاني عشر

### المسلك الأخلاقي بين الخير والشر

تذكر بعض قصص نشوء الخلق التي تصف حياة الإنسان في الفردوس، أنه بسبب معصية وصية الله دخل الشر إلى حياته، وابتدأت مرحلة جديدة خارج الفردوس، تتجاذبها عوامل الخير والشر. واختبار هذا التجاذب يحمل الإنسان على البحث عن وسائل التغلب على الشر ونيل مغفرة الذنوب.

### الخطيئة والذنب

#### ١. ما هي الخطيئة؟ (مقياس الخير)

(١) الخطيئة تتعلق بمقياس الخير. فتعدي هذا المقياس يُعدّ خطيئة بالمعنى الحضري. ومقياس الخير تعتبره الأديان تعبيراً عن مشيئة الله. ومتى كانت هذه المشيئة تُنسب إلى ألوهة لها شخصية معينة، فيحصل تفصيل محتواها في وصايا الله، في أوامره ونواهيه. أمّا إذا فهم الله كذات غير شخصية فتحمل محلّ مشيئته الشخصية ما يُدعى نظام الكون، ويكون هدف تأمل الروجانيين.

(٢) على كلّ حال متى ارتبط المسلك الأخلاقي بالله، كان الله قاعدة هذا المسلك من نواح مختلفة، باعتباره المثال الأخلاقي، أو صاحب



الحكم الأخلاقي كواضع للمعايير وكمشترع، أو مجموع الخير المطلق، أو هدف المسلك الأخلاقي ومتقبل أفعال الإنسان.

## ٢. تحديد صفة الفعل الأخلاقية

تساعد على تحديد صفة الفعل الأخلاقية عوامل مختلفة:

(١) الخطيئة مخالفة معيار الخير، وهذا المعيار يأمر بعمل الخير وينهى عن عمل الشر. فالخطيئة يرتكبها الإنسان من ثمّ عندما يصنع الشرّ ويتعدّى الوصايا والنواهي. والخطيئة يرتكبها الإنسان عندما لا يصنع الخير المفروض عليه، أي عندما لا يتمّ الوصايا. (هذا المعيار يتعلق بالعمل نفسه).

(٢) النية (وهي تتعلق بالشخص الفاعل، لا بصفة العمل نفسه). النية أساس مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وذلك على قدر معرفته بصفة العمل (أكان خيراً أو شراً) وعلى قدر عزمه على العمل بإرادته الحرة. ومع ذلك نصادف صلوات يطلب فيها الإنسان إلى الله أن يغفر له الخطايا التي لم يفعلها عن قصد إرادته، أو التي لا علم له بها، والتي إنّما تتبين له من خلال مفاعيلها السيئة في حياته كالمرض والفاقة والموت. فالإنسان لا يجزم أنّه لبت بريئاً من الإثم، ولو لم تخطر الأفعال السيئة بباله.

٣) أمّا ثقل الخطيئة وأهميّة الفضيلة فيجب لتقديرها اعتبار من تناله أفعال الإنسان، أكان الله، أم الإنسان نفسه كفرد، أم الجماعة.

### ٣. وصايا الله في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام

أهمّ وصايا الله ورد نصّها في الكتاب المقدّس في عهديه القديم (اليهوديّة والمسيحيّة)، والجديد (المسيحيّة)، وفي القرآن (الإسلام).

#### ١) وصايا الله في العهد القديم

الخروج ٢٠: ١-١٧: ثمّ تكلم الله بجميع هذا الكلام قائلاً: أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من دار العبوديّة. لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي، لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء ممّا في السماء من فوق ولا ممّا في الأرض من أسفل ولا ممّا في المياه من تحت الأرض. لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ، لأنّي أنا الربّ إلهك، إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ، وأصنع رحمة إلى أئوف من محبّي وحافظي وصاياي.

لا تحلف باسم الربّ إلهك باطلاً، لأنّ الربّ لا يزكّي من يحلف باسمه باطلاً.

أذكر يوم السبت لتقدّسه. في ستّة أيّام. تعمل وتصنع جميع أعمالك. واليوم السابع سبت للربّ إلهك، لا تصنع فيه عملاً لك أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمنتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك، لأنّ الربّ في

ستة أيام خلق السماوات والأرض والبحر وجميع ما فيها وفي اليوم السابع استراح. لذلك بارك الرب يوم السبت وقُدّسه. أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك.

لا تقتل.

لا تزني.

لا تسرق.

لا تشهد على قريبك شهادة زور.

لا تشتت بيت قريبك. لا تشتت امرأة قريبك.

ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

(قابل النص الموازي في سفر تثنية الاشتراع ٥ : ٢ - ٢٢).

(٢) بعض الوصايا في العهد الجديد

- ذكر يسوع في جوابه لسائل عن العمل الصالح بعض وصايا الله المعروفة: "لا تقتل. لا تزني. لا تسرق. لا تشهد بالزور. أكرم أباك وأمك. وأخيراً: أحب قريبك كنفسك" (متى ١٩ : ١٨-١٩؛ قابل مرقس ١٠ : ١٩؛ لوقا ١٨ : ٢٠).

- القاعدة الذهبية: كل ما تريدون أن يفعله الناس لكم فافعلوه أنتم لهم. فذلك هو الشريعة والأنبياء" (متى ٧ : ١٢؛ قابل لوقا ٦ : ٣١).



(٣) وصايا الله في القرآن (الإسلام)

- سورة الاسراء ١٧ : ٢٢ - ٣٩ : لا تجعل مع الله إلهاً آخر، فتقع مذموماً مخذولاً وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه،

وبالوالدين إحساناً، إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل ربّ ارحمهما، كما ربّاني صغيراً. ربّكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين، فإنه كان للأوابين غفوراً.

وآت ذا القربى حقّه، والمسكين وابن السبيل، ولا تبذر تبذيراً. إن المبذرين إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربّه كفوراً. وإمّا تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقلّ لهم قولاً ميسوراً. ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً. إن ربك يسط الرزق لمن يشاء ويقدر. إنه كان بعباده خبيراً بصيراً.

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق. نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خطئاً كبيراً.

ولا تقربوا الزنى، إنه كان فاحشة وساء سبيلاً.

ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق. ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً، فلا يُسرف في القتل. إنه كان منصوراً.

ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن، حتّى يبلغ أشده. وأوفوا بالعهد، إنّ العهد كان مسؤولاً. وأوفوا الكيل إذا كِلتم. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ذلك خير وأحسن تأويلاً.

ولا تقف ما ليس لك به علم. إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ، كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً. ولا تمشِ في الأرض مَرَحًا، إِنَّكَ لَن تخرق الأرضَ، ولن تبلُغَ الجبال طولاً. كلُّ ذلك كان سيئه عند ربِّك مكروهاً. ذلك ممَّا أوحى إليك ربُّك من الحكمة. ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً.

- سورة الأنعام ٦: ١٥١-١٥٢: قل تعالوا أتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم. ألاَّ تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً. ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإيَّاهم. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق. ذلك وصَّاكم به لعلَّكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسن حتَّى يبلغ أشده. وأوفوا الكيل والميزان بالقسط. لا نكلف نفساً إلاَّ وسعها. وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبى، وبعهد الله أوفوا. ذلك وصَّاكم به لعلَّكم تذكرون.

- سورة الممتحنة: ٦٠: ١٢: يا أَيُّها النبي، إذا جاءك المؤمنات يُبايعنك على أن لا يُشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن، إن الله غفورٌ رحيم.



## ٤. الوصايا الأخلاقية في أديان أخرى

(١) بابل

نجد في النصوص المعروفة في بابل لائحة بالخطايا التي يُسأل عنها الإنسان، وذلك لتسهيل تنحيثها بواسطة الابتهالات: بثّ النزاع في الأسرة، أو نشر الشقاق بين المرء وصديقه، احتقار الأب والأم، بغض الأخ الأكبر، إهانة أخت أكبر منه سنًا، كلام غير مستقيم فاسق وكاذب، خداع بواسطة أثقال مغشوشة في الميزان ونقود باطلة، منع الإرث عن الابن الشرعي، السرقة، الزنى، التفريق بين أفراد قبيلة متضامنة. زد على ذلك احتقار الآلهة وعدم الاكتراث بمحرّماتها.

(٢) مصر القديمة

عندما يحضر الميت أمام المحكمة لتتظر في مسلكه، يدافع عن نفسه ويعدّد الآثام والأخطاء التي لم يرتكبها. من هنا تتضح نظرة المصريين القدماء إلى القيم والقواعد الأخلاقية. يقول النصّ على لسان الميت: "إنّي لم أقترف إثماً بحقّ أحد من الناس... ولم أصنع شيئاً تكرهه الآلهة. لم أدع أحداً يجوع، ولم أجعل أحداً يبكي، ولم أسبب ألماً لأحد. ولم أقلل من الطعام في الهياكل... ولم أزن في مقام إلهي الطاهر. ولم أنقص من وزن الحنطة، ولم أقصر قدر الحقل. لم أسرق اللبن من فم الطفل. ولم ألتقط العصافير المكرّسة للآلهة، ولم أصطد السمك في بحيراتهما. ولم أمنع فيضان الماء في وقته، ولم أقطع مجرى الماء السائل.



## (٣) البوذية

همّ البوذيّ الأكبر هو السعي إلى البلوغ إلى الخلاص بواسطة التأمل والاستغراق. ولكنّ المرحلة الأولى لذلك هي اتباع قواعد الأخلاق الحميدة، التي تعتبر فريضة على الجميع، فإنّها تمهّد السبيل للعكوف على السير في طريق التأمل والاستغراق، متى توفّر ذلك في حلقة حياة من سلسلة التقمّصات المتعاقبة.

وقد صيغت قواعد الأخلاق في وصايا عشر:

- تجنّب هدر أي حياة.
  - تجنّب أخذ ما لم يكن عطية.
  - تجنّب التصرف الغير العفيف.
  - تجنّب التلفّظ بالكذب.
  - تجنّب تناول المسكرات.
- [وصايا تخصّ الرهبان]
- تجنّب الرقص والغناء والموسيقى ومشاهدة المسرحيات.
  - تجنّب الزينة والتبرّج باستعمال الأكاليل والعطور والمساحيق.
  - تجنّب استعمال مراقد رفيعة وعريضة.
  - تجنّب قبول ذهب وفضّة.

## ٥. عواقب الخطيئة

## (١) العلاقة بالله

أثقل عواقب الخطيئة فصم علاقة الإنسان بالله، الذي يتعدّى الخاطئ مشيئته. من هنا فقدان صداقة الله وعطفه، والتعرّض لسخطه.

١ - غضب الله قد يصيب الإنسان بشكل عقوبة، فإنه إذا فقد نعمة الله فليس له من بعد نصيب من حماية الله. إن الشعوب المختلفة تعدّ الفاقة والمرض والموت عقاباً للخطايا.

وقد لا يصيب العقاب الخاطئ فقط، بل يتعدى إلى أسرته ونسله وأحياناً إلى قبيلته كلها.

- كان هذا الاعتقاد منتشرًا عند العبرانيين. فقام النبي حزقيال يعلن أنّه اعتقاد باطل:

حزقيال ١٨: ١-٤ و ٢٠: وكانت إليّ كلمة الربّ قائلاً: ما لكم تتمثلون بهذا المثل على أرض إسرائيل قائلين: الآباء أكلوا الحصرم وأسنان البنين ضرسّت. حيّ أنا، يقول السيّد الربّ: لا يكون لكم من بعد أن تتمثلوا بهذا المثل في إسرائيل. إنّ جميع النفوس هي لي. كمثّل نفس الأب مثّل نفس الابن: كلتاها لي. النفس التي تخطأ هي تموت... النفس التي تخطأ هي تموت، الابن لا يحمل إثم الأب. والأب لا يحمل إثم الابن. برّ البار عليه يعود، ونفاق المنافق عليه يعود.

- على هذا النحو يحكم القرآن، الأنعام ٦: ١٦٤: ... ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها، ولا تزرّ وازرة وزرّ أخرى... (قابل ١٧: ١٥؛ ٣٥: ١٨؛ ٣٩: ٧؛ ٥٣: ٣٨).

٢ - عقاب الدنيا يقابله عقاب الآخرة، إمّا للكفّارة وإمّا للعذاب الأبديّ في جهنم. [وسنعود إلى ذلك أدناه].

## (٢) العلاقة بالجماعة

الخطيئة لها أثر في حياة المجتمع وتبلبل تناغم النظام الاجتماعي، وبذلك تهدد مصالح المجتمع الحيائية.

- يقابل المجتمع الإثم وتعدّي قواعد السلوك بإخضاع الخاطئ للعقوبة. من العقوبات ما يصيب المذنب في ماله: مثل العقوبات المالية، ونزع الملك، وتعطيل بعض الحقوق. ومن العقوبات ما يصيب المذنب في شخصه في شرفه، من هنا ألوان الإذلال والطرده من الجماعة؛ وفي حرّيته، من هنا القبض عليه، والسجن والنفي؛ وفي قوّته البدنية، من هنا الجلد والضرب وقطع الأعضاء، والأشغال الشاقة، والأخذ بثأر الدم، والإعدام، والموت.

- وقد يصيب العقاب عند بعض الشعوب أسرته أو قبيلته. من هنا الحروب القبلية المعروفة.

- وهدف معاقبة المذنب هي استعادة النظام، ومكافحة الإجرام والتخويف منه، وتهذيب الخاطئ لكي تمكن أو تسهّل عملية استعادة انخراطه في المجتمع.

## (٣) العلاقة بالمذنب نفسه

إنّ المذنب الذي يعي أخطائه وآثامه، يشعر بوطأة الذنب، وهذا الشعور يدفعه إلى أن يجهد في أن يعود ويحترم النظام ويحفظ قاعدة الخير، ويوجّه حياته التي حادت عن السبيل القويم إلى اتباع الخير.



ثم إنَّ الخوف من العقوبة أو مفاعيل العقاب الأولى توقظ في قلب الخاطئ شعورًا بالذنب. لذلك يبحث عن وسائل التكفير عما ارتكبه والتعويض عن الخسارة التي ألحقها بنفسه أو بالآخرين.

### مغفرة الذنوب

إنَّ وسائل مغفرة الذنوب تهدف إلى إعادة حال البراءة والبرِّ وحذف الشعور بالإثم ولو جزئيًّا. ومنها ما يتعلّق بالخطيئ نفسه فيبحثه على التوبة وتغيير استعدادته السيئة وردعه عن الأعمال الشريرة، ومنها ما يتعلّق بالله الذي أهانه الخطيئ بإثمه ويهدف إلى استعطاف الله والتوسّل إليه أن يعيد ربط العلاقة السليمة التي فصمتها الخطيئة.

#### ١. توبة الخطيئ

توبة الخطيئ رجعته عن فعله الشرير وعمله الآثم، وتحويل عزمه عن فعل الشرِّ إلى صنع الخير.

(١) هذا يعبر عنه الخطيئ في صلاته عندما يتوجّه إلى الله ويستغفره ويؤكد عزمه على أن يتبع طريق الخير من الآن فصاعدًا.

(٢) والتوبة تظهر في الإقرار بالذنب وتعداد المآثم التي ارتكبت وتأكيد العزم على تجنبها في المستقبل. وعادة الاعتراف والإقرار بالذنب معروفة لدى جماعات دينية مختلفة.

- كان من عادة البابليين، وعلى رأسهم الملك، أن يعترفوا علناً بذنوبهم، ويختتموا كل جملة بطلب الحلّ منها. بعد ذلك كانت تُرمى لوحة كتبت عليها الآثام في الماء. وفي الخامس من نيسان كان الكاهن الأعظم يتقدم من الملك وينزع عنه شارات السلطة، ويلطمه ويقوده إلى تمثال الإله مردوك. هناك كانت الإشارات توضع، وكان الكاهن يشدّ الملك بأذنيه ويأمره بالركوع والاعتراف بذنوبه. بعد ذلك كانت شارات السلطة تُعاد إليه<sup>١</sup>.

- مثل ذلك معروف عند ارتقاء الملك العرش عند الهنوسيين. والاعتراف بالخطايا معروف عند البوذيين والصينيين، وعند المصريين القدماء، وفي يوم رأس السنة عند هنود أميركا الوسطى، كما هو مذكور في مزامير سليمان، وشائع في الدين المسيحي. وقد حافظت عليه الماندية والمانوية في أعقاب المسيحية.

(٣) لدينا من صلوات القبائل البدائية الاعتراف التالي:

لقد انطلقت مع امرأة

وسحرتُ إنساناً

ومارستُ الإجهاض

ولم أوفِ بالنذر

ولم أشارك في شعائر الذبيحة

ضربتُ أبي وأمي

<sup>١</sup> راجع: Alfons Kirchgässner, Die mächtigen Zeichen, Freiburg 1959, 417.

واحتقرت كلمة الشيخ (أي الأب)  
 وتصارعتُ مع أخي  
 وارتكبت النميمة بالكذب  
 واشتهيت الجماع مع بعض الأقرباء المحرّمين  
 وارتكبت السرقة.  
 ليس لديّ خطايا غير هذه.  
 أنا مسكين. احرسني، يا نغولوفي.  
 ثمّ يقذف الخاطئ قطع خشب صغيرة وتبنًا في الهواء ويقول: جميع  
 الخطايا انطلقت مع الريح.  
 - إنّ مزامير التوبة في العهد القديم من الكتاب المقدّس هي ٦، ٣٢،  
 ٢٨، ٥١، ١٠٢، ١٣٠، ١٤٣. نورد هنا بعض آيات من المزمور ٥١،  
 وهو صلاة التوبة لداود الملك:  
 ارحمني، يا الله، بعظيم رحمتك، وبكثرة رأفاتك امحُ ماثمّي.  
 اغسلني كثيرًا من إثمي ومن خطيئتي طهرّني، لأنّي أنا عارف بآثامي،  
 وخطاياي أمامي في كلّ حين.  
 إليك وحدك خطئْتُ، وقدّامك الشرّ صنعت...  
 اصرف وجهك عن خطاياي وامحُ جميع ماثمّي.  
 قلبًا طاهرًا اخلُق فيّ، يا الله، وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي...  
 إنّما الذبيحة لله روح منسحق، لا يرذل الله قلبًا منسحقًا ومتواضعًا.



(٤) وكثيراً ما ترافق الاعتراف بالذنوب حركات بالجسم تبين حالة التوبة، مثل السجود، والركوع، وقرع الصدر، وغيرها من المواقف التي تعبّر عن الندامة.

## ٢. التصالح مع الله

### (١) الأعمال الصالحة والتقادم

١- الأعمال الصالحة تدلّ على عودة الخاطئ إلى طاعة الله وعزمه على صنع الخير بصفته مؤمناً وعضواً في أسرة، وعضواً في جماعة أو في مجتمع.

- هناك وسيلة منتشرة جداً في مختلف الأديان، هي تقريب التقادم والذبائح (الذبائح الحيوانية أو البشرية)، والتقادم البديلة عن الإنسان، بأن يقرب لله جزءاً من جسده، أو من ممتلكاته، بدل تقديم حياته، أو أن يقرب عضو من القبيلة بدلاً من القبيلة كلها.

- أحد أنواع التقادم هي ذبيحة التكفير، تقام شعائرها باحتفال خاص لنيل مغفرة خطايا الشعب كله، فيقدّم تيس الكفارة عوضاً عن آثام الشعب، أو يذبح أسير صحيح الجسم وقاية للملك من شرّ مهلّد.

- مثل ذبيحة التكفير هذه كانت تمارس عند العبرانيين. نجد عنها في العهد القديم من الكتاب المقدس ما يلي: "والتيس الذي وقعت عليه قرعة عزازيل يقفه حياً أمام الرب ليكفر عليه ويرسله إلى برية عزازيل... فإذا فرغ من التكفير عن القدس وعن خباء المحضر وعن المذبح يقرب التيس الحي، ويضع هرون يديه على رأس التيس ثم يرسله بيد رجل مُعدّ

له إلى البريّة، فيحمل التيس جميع ذنوبهم إلى أرض منقطعة، فيرسل التيس في البرية (أخبار ١٦ : ١٠ ، ٢٠ : ٢٢).

٢- نجد في المسيحيّة فكرة التكفير عن خطايا البشر بدم المخلص السيّد يسوع المسيح.

- رومة ٣ : ٢٣-٢٥ : فالجميع قد خطئوا فأعوزهم مجد الله، والجميع بنعمته يبرّرون مجاناً، بالفداء الذي بالمسيح يسوع، الذي سبق الله فأقامه أداة تكفير بالإيمان بدمه، لإظهار برّه، بعد أن تغاضى عن الخطايا السالفة.

- رومة ٥ : ٩ : فكم بالأحرى، وقد بُرّرنا الآن بدمه، نخلص من الغضب.

- كوليوسي ١ : ١٩-٢٠ : ففيه ارتضى (الله) أن يُحلّ الماء كلّهُ، وأن يصالح به نفسه كلّ ما على الأرض وفي السماوات، بإقرار السلام بدم صليبه.

- ١ يوحنا ١ : ١٧ : ولكن إن سلكنا في النور، كما أنّه هو في النور، فلنا شركة لبعضنا مع بعض، ودم يسوع ابنه يطهّرنا من كلّ خطيئة.

- رؤيا ٧ : ١٤ [عن المخلصين] : هؤلاء هم الذين أتوا من الضيق العظيم، وقد غسلوا حللهم وبيّضوها بدم الحمل.

- عبرانيين ٩ : ١١-١٤ : أمّا المسيح، فإذا قد جاء حبراً للخيرات الآتية، اجتاز المسكن الأعظم والأكمل، الذي لم تصنعه يد، أي ليس هو

من هذا العالم. وبدمه الخاص، لا بدم تيوس ودخل المقدس مرة لا غير،  
بعد أن أحرز لنا فداءً أبدياً.

٣- نجد في الأديان المتطورة مقولات تحدّ من أهميّة التقادم والذبائح  
المادية، وتوجّه الانتباه إلى ما هو أعلى قيمة، أي إلى الممارسات الروحية.  
- مزمور ٥٠: ٩-١٥: لا آخذ من بيتك عاجلاً ولا من حظائرك  
تيساً. فإنّ لي جميع وحوش الغاب وألوف البهائم التي في الجبال. قد  
علمتُ كلّ طيور الجبال ولديّ حيوان الصحراء. إن جُعت فلا أخبرك،  
فإنّ لي المسكونة وملاؤها. أم لعلّي أكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس.  
أذبح لله الاعتراف، وأوفّ العليّ نذورك. وادعني يوم الضيق، وأنا  
أنجيّك فتمجّديني.

- ١ ملوك ١٥: ٢٢: فقال صموئيل: أترى الربّ يُسرّ بالحرقات  
والذبائح، كما يُسرّ بالطاعة لكلام الربّ. إنّ الطاعة خيرٌ من الذبيحة،  
والإصغاء أفضل من شحم الكباش.

- عاموس ٥: ٢١-٢٤: لقد أبغضتُ أعيادكم وزدلتها، ولم تطب  
لي احتفالاتكم. إنني إذا أصدّعتكم لي محرقاتكم وتقادمكم لا أرتضي ولا  
ألثفت إلى ذبائح السلام من مسمّناتكم. أقصِ عني زجل أغانيك، فإنني  
لا أسمع نغم عيدانك. بل ليجرّ القضاء كالمياه، والعدل كنهر لا ينقطع.

- هوشع ٦: ٦: فإنني أردتُ رحمةً لا ذبيحة. ومعرفة الله أكثر من  
المحرقات.



## (٢) الزهد

الزهد والتقشّف يهدفان إلى ضبط الغرائز المضرة في الإنسان، وتثبيت عزمه على صنع الخير.

## ١- العوائق التي يجب التغلب عليها

- تعدّد النصوص البوذية العوائق التالية: حبّ الدنيا، الميول الشريرة، والرغبة في إلحاق الضرر بالغير، العداوة، والكسل والتراخي، الشهوة الجسدية، والكبرياء، والعجرفة، الخوف والاضطراب، الشكّ والجهل.

- وتورد الرسالة الأولى ليوحنا في العهد الجديد ملخصاً للعوائق: لا تحبّوا العالم ولا ما في العالم. إن أحبّ أحدُ العالم فليست فيه محبة الآب. لأنّ كلّ ما في العالم - شهوة الجسد، وشهوة العين، وصلف الغنى - ليست من الآب بل من العالم (١ يوحنا ٢: ١٥-١٧).

٢- تمارين الزهد والإعراض عن زخرف الدنيا تضبط الميل إلى الرذائل، وتسهّل الإرادة وتطيل الصبر في مغالبة الأهواء والأميال الرديئة. والزهد يرمي إلى أبعد من مجرد الاستغفار عن الخطايا، فإنّه يحرّر الزاهد من قيود الشرّ ويطلقه في سبيل الخير والفضيلة.

## (٣) الاعتراف بالخطايا والحلّ من الذنب

لقد جئنا سابقاً على ذكر ذلك.

## نتائج التحرر من الذنب وغفران الخطايا

### ١. في الدنيا

(١) ينتج من التحرر من الذنب كسب عطف الله، وهذا يعني في مختلف الأديان الحماية من المصائب والضيق. الأعمال الصالحة تقود الإنسان إلى النجاح والرغد والغنى.

(٢) هناك نظرة تتعدى طلب الرغد والنجاح كنتيجة لتجنب الإثم، وتطالب بالقيام بالفرائض وحفظ الوصايا لمجرد وعي الإنسان لواجبه الأخلاقي، دون النظر إلى نيل مكاسب معينة.

- ورد في "نشيد الإله" الهندوسي (هاغافادغيتا) أن على الإنسان أن يعمل لمجرد وعيه لواجبه، دون أي ميل ما، أو رغبة في الأجر والنتائج.

- ويرى بوذا قيمة العمل المسلكي لا في ما يأتي به من نجاح، بل في نية الفاعل.

(٣) مغفرة الذنوب والبراءة من الخطيئة يثيران في الإنسان شعوراً بالحرية الباطنة، وبمطابقة مسلكه لقاعدة الخير، وبذلك للإرادة الإلهية. وقد ينبعث في قلبه شعور بالسعادة والطمأنينة.

### ٢. في الآخرة

(١) في الأديان التي تقول بعودة الميت إلى حياة جديدة في هذه الدنيا، مثل الهندوسية والبوذية، تمهد الأعمال الصالحة والتغلب على الشر

ومغفرة الذنوب الحصول على ولادة جديدة في منطلق أفضل من الحياة الماضية.

- أمّا الهندوسية فتقول بأنّ المولود الجديد في وضع أفضل ممّا كان عليه سابقاً، إن هو مارس الفضيلة وصنع الخير يكون أقرب إلى الخلاص النهائي، والنجاة من دون الولادات الجديدة، ليصل إلى نعيم الإله.

- أمّا البوذية فتري أنّ صنع الخير وممارسة الفضائل تمهّد السبيل إلى العكوف على التأمل والاستغراق ومن ثمّ إلى النجاة إلى رحاب النرفانا، أو - في رؤية أخرى - إلى التقرب بالإيمان والثقة والفضيلة من بوذا السماوي ومن نعيم سمائه.

(٢) أمّا الأديان التي تعتبر الموت عبوراً نهائياً إلى الآخرة، فتقول بأنّ الأعمال الصالحة وحفظ الوصايا الأخلاقية تمكّن الإنسان من الحصول على الحياة الأبدية واكتساب نعيم السماء.



## الفصل الثالث عشر

### بُعْدُ اللَّهِ وَقُرْبُ اللَّهِ

إنَّ الإنسان، إن هو مَلَكَ إحساسًا مرهفًا بالقيم الأخلاقية لا يني يعاني من عجزه عن الوصول إلى إكمال وكبح الأميال التي تبعده عن سبيل الخير. وإن وصل به الجهد إلى حفظ الوصايا، فإنه لا يزال يشعر بأنه لم يتخطَّ بعد ضيق وجوده، فإنه من وراء طاعة الوصايا واكتمال الفضيلة، لا يزال يتطلَّع إلى إمكانية تحطِّي حدود كيانه البشريِّ والهوية السحيقة التي تفصله عن الله ذاته. هذا البعد، بعد الله، هو الشكل الأساسي لضعة الإنسان، لا بمعنى نقصه الأخلاقيِّ، بل بمعنى كيانيِّ. فإنَّ بُعد الله والانفصال عنه، وعدم التمكن من أن يكتسب حياة هي حياة الله نفسه، هذا ما يقلق الإنسان الروحيَّ في أعماق كيانه، ويحثه على تحطّيه في سعيِّ إلى الوصول إلى عند الله.

مثل هذا تعبّر عنه نصوص عديدة من الروحانيين في اليهودية والمسيحية والإسلام، وفي الهندوسية.

- مزمور ٧٣: ٢٥-٢٦: من لي في السماء وعلى الأرض لم أبغ معك أحدًا. قد فني جسدي وقلبي. إنه هو صخرة قلبي وحظي إلى الأبد.

- من نصوص طريقة الحب الإلهي في الهندوسية: أنا الذي يخاف، إن انقطع عنك، من أن يتلوّى كالمسك في مجرى جاف، أنا لا تهملني.

سنعالج في المقطع الأوّل من هذا الفصل سبب بُعد الله وأشكاله، وفي المقطع الثاني أساليب التغلّب على هذا البُعد وسبُل الحصول على قرب الله.

## سبب بُعد الله وأشكاله

### ١. الجسد

(١) نجد في بعض الأديان أنّ الإنسان المتعلّق بالجسد يعاني من نقص في الكيان. فهو لم يعد مجرد روح، من هنا يتعرّض لأحوال عدم الكيان. - في نصوص أصحاب التأمل والاستغراق في الهندوسية نقرأ ما يلي: قدني من عدم الكيان إلى الكيان. قدني من الظلمة إلى النور، قدني من الموت إلى ما فوق الموت (بهريهاد أرائيكا أو بانيشاد). - في الزمن الهليني نعر عند بومندرس على فكرة استنكار الجسد والحكم عليه بأنّه تعبير عن حالة ضياع الإنسان. من هنا ضرورة التطهّر من الجسد (عند أفلاطون) أو التغلّب على الازدواجية (في الأفلاطونية الحديثة)<sup>١</sup>.

(٢) إنّ الجسد يربط الإنسان بالعالم الماديّ بواسطة الحواسّ والأهواء وشهوة اللذة.

<sup>١</sup> - راجع: Gustav Mensching, Idee der Sünde, Leipzig 1931, 28-29

يقول في ذلك بولس الرسول: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ بِحَسَبِ الْجَسَدِ يَنْزِعُونَ إِلَى مَا لِلْجَسَدِ، وَالَّذِينَ هُمْ بِحَسَبِ الرُّوحِ إِلَى مَا لِلرُّوحِ. وَالْحَالُ أَنَّ نَزَاعَاتِ الْجَسَدِ مَوْتٌ وَنَزَاعَاتِ الرُّوحِ حَيَاةٌ وَسَلَامٌ. وَمَنْ ثُمَّ نَزَاعَاتِ الْجَسَدِ عَدَاوَةٌ لِلَّهِ... (رومية ٨: ٥-٧).

## ٢. الجهل

ليس المقصود بالجهل هنا عدم معرفة الحقائق النظرية، بل عدم القدرة على تلمس حضور الله في أعماق الكيان والحصول على المعرفة الروحية التي هي أساس كل اتحاد بالله. والجهل، عند أكثر الأديان، يعني هنا الاعتقاد الخاطئ وعدم معرفة التعاليم الصحيحة التي من شأنها أن توثق العلاقة بين الله والإنسان طالما يهيم هذا في متاهات الضياع.

## ٣. عدم الإيمان

عدم الإيمان شكل من أشكال الجهل الديني، إذ إنَّ غير المؤمنين لا يستطيع استكشاف عمل الله في الخليقة، ولا تقبل وحي الله، ولا التمسك بحقائق الخلاص. من هنا يزداد التباعد بينه وبين الله لأنَّ بصيرته تكون مظلمة فلا يجد سبيل الخلاص.



## السييل إلى قُرب الله

### ١. تعدي الجسد والارتباط بالعالم

- الزهد والتقشّف يفسحان مجالاً ضيقاً للجسد، وذلك مثلاً بضبط الحركة والتنقّل من موضع إلى آخر (كالإقامة على عامود أو في دير)، وبالصوم وأنواع إماتة الأهواء والنزعات.
- عدم الاهتمام للعالم وللجاه وللغنى والمال، والعلاقات الاجتماعية في الأسرة (مثلاً بممارسة العفة) والمجتمع (مثلاً بالعيش في العزلة).
- مجاهدة الشهوات تقوم بممارسة الفقر والعفة والطاعة، والتغلب على طلب السلطة وحبّ الجبروت والتعدي، والتماس السلام.
- نتيجة هذه الممارسات هي ضبط النفس، وتشديد القوى الروحية، وتنقية المشاعر حتّى الإقلاع عنها بكاملها، وتحرير العقل والقلب ودفعهما في سبيل التماس الله.

### ٢. التغلب على الجهل والعمى للوصول إلى معرفة الله

- (١) إنّ التحرّر من العمى والجهل هو في التيار الأفلاطوني أساس التمكّن من البلوغ إلى المعرفة المخلصة.
- يقول أفلاطون إنّ الروح كائن شبيه بالله، كان في البدء متّحداً اتحاداً شديداً بالله، قبل أن يهبط ويتّحد بالجسد، الذي هو سجن النفس أو قبرها. ولكنّ هذا الاتحاد بالجسد يمكن التحرّر منه، بأن يسعى الإنسان إلى أن يكون شبيهاً بالله، وذلك بالتماس مشاهدة الكيان

الإلهي. ويحصل الاتحاد الكامل بالله بعد الانفصال عن هذا العالم، أي بعد الموت.

- يقول أفلوطين (٢٠٤-٢٧٠ بعد المسيح) إنّ النفس صادرة عن الله وتتوق إليه. أمّا شرط الاتحاد بالله فهو الافتراق عن العالم المادي ومغادرة كلّ ما هو غريب عن الله. أمّا الوصول إلى السرّ المطلق غير الموصوف والمتعالى عن الإدراك، فلا يحصل إلّا بالمشاهدة، وفي هذه المشاهدة يكمن الاكتمال. فمن شاهد الله، اشتعلت فيه نار المحبة وتفجّرت فيه السعادة<sup>٢</sup>.

(٣) إنّ معرفة حقائق الخلاص ومشاهدة الأسرار الإلهية ترتكز على انفتاح الإنسان على التماس الله. ولكنّ المشاهدة هي نعمة الله الذي يتنازل لمقابلة الإنسان. يقول في ذلك نصّ من تراث الهندوسية: ليس بالتلقين يُنال صُلب الكون، ولا بالفهم ومعرفة الكتب. بل من أرادَه هو، هو الذي يفهمه، وله يُعلن صلب الكون نفسه.

### (٣) طرائق التأمل

نعرض مثلاً لهذه الطرائق، هي طريقة التأمل في أسلوب اليوغا في الهندوسية، ولها ثماني درجات:

<sup>٢</sup> - راجع

Thomas Ohm, Die Liebe zu Gott in den nichtchristlichen Religionen, Krailling vor München 1950, 149-150, 177-178.

## ١. الاستعداد للتأمل:

الدرجة الأولى: حفظ القواعد الخمس: ضبط النفس، قول الحقيقة، النزاهة، العفة، وعدم الاكتراث للمال والملك.  
الدرجة الثانية: الممارسات الخمس: الطهارة، التعفف، الزهد، تلاوة النصوص، الاستسلام لربّ الكون.

## ٢. الدرجات الخارجيّة

الدرجة الثالثة: وضع الجسد وضعا يساعد على ضبط الفكر.  
الدرجة الرابعة: تنظيم التنفس، للحصول على هدوء الروح، فيمكن التغلب على شرود الخواطر وتقلبات المشاعر.  
الدرجة الخامسة: انسحاب الحواس من العالم الخارجي وتنمية جميع العوائق الخارجيّة.

## ٣. الدرجات الباطنة (وهي مرتبطة الواحدة منها بالأخرى)

الدرجة السادسة: حصر الفكر، وذلك بربط العقل بسرة البدن أو بطرف الأنف أو بعضو آخر من الجسد، أو بشيء خارجي، أو حتى بالإله، وذلك منعا لاضطراب الفكر وتنقله من شيء إلى آخر.  
الدرجة السابعة: التأمل، وهو أهم ما في الأمر، فيتعمق الفكر في موضوعه ويضيع فيه عن نفسه. من هنا يُصار إلى الغاية المنشودة.  
الدرجة الثامنة: الاستغراق، وهو البلوغ إلى موضوع التأمل، فيتماهى الفكر مع موضوعه، ويصل إلى الحقيقة الروحانيّة. من هنا تنتج البصيرة والعلم المقدّس الذي يؤدي إلى الخلاص. فيكون التأمل قد بلغ إلى مبتغاه



وهو عزل الروح عن العالم والاتحاد بالله والحصول على حال الاستنارة<sup>٢</sup>.

#### (٤) معرفة الله

- ليست هذه معرفة نظريّة، إنّها معرفة روحانيّة تجعل المتأمّل يتعلّق بالله بجميع جوارحه وبكلّ قوّة عقله، فلا يعود يوجّه النظر إلى أيّ شيء آخر. ومن الروحانيين من يتوق إلى الفناء التامّ في الله، فينحّي كلّ ما يمكن أن يفصله عن الله: العالم والبشر، وخصوصاً ذاته بجميع قدراتها من إرادة ومعرفة. ويحصل ذلك في خطوات ثلاث: التجريد الكامل عن العالم والبشر وجميع الصفات الأرضيّة؛ - والانفراد في العزلة مع الله فلا يعود يرى سوى الله؛ - والإفراد، فلا يبقى سوى الله وحده في عليائه الفائقة.

<sup>٣</sup> - ومع ذلك فليس في طاقة الإنسان رغم جميع محاولاته أن يبلغ إلى الله المتعالّي، الذي لا يزال في كلّ الأحوال أبعد ممّا تمتدّ إليه أشواق المتأمّل. من هنا تتّضح ضرورة المراقبة الواعية، لئلا يقع الباحث عن الله في هوس مشاعره ويظنّ، عن نقص في الخبرة الروحيّة، أنّه قد بلغ أعلى درجات معرفة الله واخترق الحجاب إلى عند ذات الله.

<sup>٢</sup> - راجع: Jan Gonda, Die Religionen Indiens I, Stuttgart 1969, 312.

## ٣. الاتحاد بالله ومحبة الله

هناك تمارين روحية تساعد المتأمل الذي يلتمس البلوغ إلى الله، والامتلاء من حبه، ويختبر نشوة عشقه والاتحاد به. منها ذكر اسم الله ذكراً متواصلاً، ومنها الرقص على أنغام الشوق إليه.

## (١) الرقص على أنغام الشوق إليه

مفاعيل هذه التمارين هي استسلام العاشق إلى الله والثقة الكاملة به، فيكون همه الوحيد أن يخدم الله بأمانة ويتوجه إليه بشكل متواصل، وأن يفكر فيه ويفرح بحضوره.

(٢) وهناك التقرب إليه والأنس به، والشكر له على إنعاماته، وعدم التفكير في سواه.

(٣) وهناك أحوال العشق الشديد، فلا يأبه العاشق لشيء سوى الله. ويمتلئ قلبه احتراقاً في شوق ملتهب إلى الله مبتغياً أن يتحد به ويغرق فيه، وينعم بفرحه العارم، ويمتلئ من ذاته الإلهية، فيغيب وعيه البشري وينغمس في سعادة الله. فكأن جبروت الله قد استحوذ عليه، وصورة الحبيب ملأت جميع آفاقه. فالله هو وحده من يصبو إليه ويتوق إليه بكيانه كله.

نسمع من الهندوسية عاشق الإله شيفا يدعو: "إحساسي، وجسدي، وفمي، وأنفي، وأذني، وعيني، وجميع أغصاني وحواسي تشتاق إليك

وحدك. لا أطيق، يا شيفا، أن أحيا بعد على هذه الأرض. ادعني، يا رب، وخذني إليك".

(٤) وقد تتحوّل مظاهر هذا العشق في بعض التيارات الدينية إلى أشكال يجيء التعبير عنها بصورة متّخذة من الممارسات الجنسية، فيوصف الوصل بالله بعلاقة العريس والعروس في هيب عشقهما وما ينتج منه من أحوال مختلفة، تبلغ إلى أحوال الانخطاف والغيوبة وارتشاف أشدّ ملذات السعادة.

(٥) من أحوال العاشق الشعور بقرب الله مع ما يرافق هذا القرب من فرح واطمئنان. والاستغراق في ذات الله ليحظى برؤية الله وينعم بنشوة حبه. فينتهي به المطاف إلى الاتحاد بالله وفناء ذاته البشرية.

#### ٤. أحوال التخلي

ثمّ يختبر الروحانيّ أحوال التخلي، فيتيه ويتلمّس ويصغي، لعله يحظى بنظرة أو بكلمة تعزية. وكأنّ الله قد خذله ولا يعود يكلمه.

ويتمسّك العاشق بالثقة رغم يأسه، ويجهد في التماس الله، ويكي من حرارة قلبه الوهّان، ويذكر رحمة الله ومحبّته.

ثمّ يدعو ويلجّ في الدعاء، ويشكو ويتضرّع. وفي النهاية يستسلم لمشیئة الله ويجد الراحة ويطمئنّ قلبه، عالماً أنّ قرب الله ليس من نتاج جهود الإنسان، بل عطية من الله. فيسلم ذاته في يد الله، ويتنظر بتواضع وصبر التفاتة منه منعشة.



ليس للروحانيّ مطلبٌ أشدَّ إلحاحًا من التماس العيش في قرب الله إلى الأبد، أشدَّ ما يكون القرب، فلا تعود القطيعة من بعدُ ممكنة. فإنَّ قرب الله مثل هذا القرب هو عربون الأمان والحياة والامتلاء والسعادة.

### الاتّحاد بالآلهة بوساطة الشعائر الطقسيّة

الشعائر الطقسيّة هي علامات خارجية تُستعمل فيها موادّ أو تقوم بأفعال تهدف إلى إقامة علاقة بالآلهة، أو تدلّ على اتّحاد بالآلهة وتوصل الإنسان إلى هذا الاتّحاد.

١. أبسط هذه الشعائر هو لمس الإله الحاضر في أشياء مقدّسة أو في مذبح أو في صورة، وذلك لتنتقل القدرة الإلهيّة من مصدرها إلى جسد وروح الإنسان الذي يقيم هذه الشعائر.

٢. القبلة هي نوع من الكلام السريّ به تنتقل القدرة من الإله إلى الإنسان المتعبّد فيحصل الاتّحاد بينهما.

٣. الاتّحاد الجنسيّ، أكان ذلك عن طريق البغاء المقدّس في هيكل الإله أو الإلهة، أو على المستوى الروحانيّ الرمزيّ الذي يكثر استعمال عباراته في النصوص الروحانيّة.

٤. الاتّحاد الكيانيّ، فيه يتّحد جوهر الألوهة بجوهر الإنسان، فتتأله الروح بتناول الغذاء المقدّس والشراب المقدّس.

- فالطعام الطقسيّ هو اشتراك بالألوهة. فمتى أكل لحم الذبائح، فكأنّه أكل لحم الإله الذي قُدِّمت له الذبيحة في الوليمة، أو يُدعى الإله إلى الاشتراك في أكل الذبيحة مع مقدّميها. فيقوم الاتحاد به رمزياً بواسطة هذه الشرقة.
- والشراب المُسكر والمخدّر يكون سبيلاً لحصول الانخراط والاستغراق والوصول إلى خلود الآلهة.

### الاتحاد بالآلهة بواسطة التمثيلات السريّة

#### ١. رموز التمثيلات السريّة

التمثيلات السريّة هي شعائر تذكّر بأفعال إله ومصيره، وتهدف إلى ان يختبر الإنسان الذي يقوم بالشعائر المصير الذي اختبره الإله فيصير بذلك شبيهاً له ويتّحد به. بذلك تحفظ حياة الإنسان من الموت والقضاء في الآخرة، وتُقام علاقة وثيقة بينه وبين الإله أو الإلاهة. بهذا تكون التمثيلات السريّة قد قامت بدور وسائل الخلاص الممتازة.

وتُقام المراسيم في جزئين. يشمل الجزء الأول منهما الشعائر التحضيرية لتطهير طالب التقديس والذين أحرزوا قبله التقديس. أمّا الجزء الثاني فيشمل الشعائر التي تهدف مباشرة إلى إقامة الاتحاد مع الإله أو الإلاهة، وهي تحتوي على أفعال (مثل لمس أشياء)، وأقوال، أي تلاوة العبارات التي ترافق الأفعال وتدلّ على معناها والمراد منها، وعلى عرض الرموز المستعملة.

تهدف هذه المراسيم إلى بسط مصير الإله المأساوي وتمكين الطالب من الاشتراك في هذا المصير والاتحاد بالإله والحصول بذلك على الخلاص. وحصول الخلاص هذا يُعتبر إما عطية حرة من قِبَل الإله، أو مفعولاً سحرياً يخضع له الإله.

## ٢. أهمّ التمثيلات السريّة

محتوى التمثيلات هو أنّ إلهاً يموت بطريقة مأساوية، ويهبط إلى الجحيم ويُحرز هناك السلطة على عالم الأموات، ويحصل على الخلاص لنفسه ولجميع الذين يشتركون في الشعائر الطقسية، فيكون مصيرهم على مثال مصير الإله المتألم الذي يموت ثمّ يقوم ويكون خالداً في عالم الآلهة.

نجد مثل هذه الشعائر في رواندا في أفريقيا (حول الإله ريانغومي)، وفي العالم الهليني (شعائر إلويسيس حول الإلهتين ديمتر وابنتها كوري وشعائر ديونيسوس، وشعائر أورفويس)، وفي العالم الشرقيّ (شعائر إيزيس، وشعائر ميتراس وشعائر كياله وأتيس). وسنكتفي هنا بوصف شعائر ميتراس مثلاً على سائر التمثيلات السريّة.

## ٣. شعائر ميتراس

### (١) قصّة الإله ميتراس

ميتراس يتلقّى من غراب مهمّة القبض على الثور وتقديمه ذبيحة.



فبعد محاولات عديدة قبض الإله على الثور نهائياً وحمله على ظهره ظافراً إلى مغارة. وطرحه على الأرض وغرز خنجره في خصره. عند ذلك تحصل معجزة: من دم الثور وذببه نبتت سنابل حنطة. فالموت كان سبب الحياة.

ويلحس كلب وثعبان الدم لينالا الخصب، فيما العقرب يحاول أن يسمم مني الثور. ويحضر عملية الخلاص هذه الشمس والقمر، وغالباً أيضاً السيارات السبع، وآلهة الرياح الأربع والفصول الأربعة، فتُفَضَّى على الحدث صفة كونية.

وعندما يُقتل الثور يأكل ميترا مع إله الشمس لحم الثور ويشرب دمه. ويمدّ الواحد منهما اليد إلى الآخر ويصعدان معاً إلى السماء.

## (٢) شعائر الحفلة

كان المحتفلون ينتسبون إلى جماعة الجنود. وكان العبيد والفقراء يشتركون أيضاً في شعائر الحفلة. ولم يكن عادة يسمح بالدخول إلا للرجال. وكان كل شيء يحصل في نظام صارم.

تبدأ الحفلة بكشف سرّ خدمة ميترا. تلي ذلك مراسيم التقديس، فيدخل الطالب عارياً إلى هيكل ميترا تحت الأرض، وله شكل مغارة. وتُربط عيناه ويداه، ويُخضع لشعائر الاختبار. وبعد أن يكون قد عبرها بنجاح، يكتنى بالغراب، ويُدعى الخادم. ثم يصير عروساً، بضمّ يده اليمنى إلى يد الأب (أي ميترا) في زواج روحاني.

أمّا عندما يصير جنديًا فيكرّس نفسه بقسم للخدمة في كتائب جيش الإله الذي لا يُغلب. وآخر الشعائر يصير الطالب أسدًا، وهذا يعني أنّه اشترك في شعائر التقديس بكاملها.

تتبع ذلك المأدبة، فكما أنّ لحم الثور ودمه يبعثان الوجود الإلهي، كذلك يكون الخبز والخمر عربونًا للكيان الإلهي وللقيامة.

#### ٤. نجاح الشعائر الطقسية

كان كثيرون في ذلك العهد يتوقون إلى التواصل مع الله، ومخاطبته، وتسليم الذات إليه، والاستغراق فيه، والشعور بقربه. من هنا تهاقت العديد منهم إلى الاشتراك في الشعائر السريّة، للاشتراك بواسطتها في آلام وموت وقيامة الإله، فيكون ذلك صيانة للحياة الأرضيّة وبركة لها. وكان ذلك التوق علامة عدم الرضى بتحصّن الفلسفة في ذلك الزمان في حصون الفكر الصارم، الذي لم يُفسح المجال للبحث عن مخلص قريب من حياة البشر. فكان أن الشعائر الممارسة في المناطق الشرقيّة من المملكة، انتشرت انتشارًا واسعًا وكان لها أثر بالغ في حياة المجتمع آنذاك.

## الفصل الرابع عشر

### من الدُّنيا إلى الآخرة: الموت

يُحصل الموت بانفصال الروح أو النفس عن الجسد. ففيما يفنى الجسد وتنحلّ عناصره، تظلّ النفس حائزة على كيانها وقادرة على التحكّ واستخدام طاقاتها، بحيث لا تعود حياة الميت بعد وفاته تثبطها عوائق الحياة على الأرض.

### الموت والحياة

لا يعدّ تراث الثقافات البدائيّة الموت نهاية تامّة للحياة، بل انتقالاً من العالم إلى حياة أُخرويّة، فالميت لا يزال يتمتّع بحياة ليست هي حياة الأرض، ولكنها حياة حقيقية.

### ١. الموت والتقمّص

إنّ القول بالتقمّص أي بعودة النفس إلى جسد جديد وإلى ولادة جديدة يُعثر عليه في كثير من بقاع الأرض، خصوصاً في الهند، وبلد اليونان القديم. وقد بلغ فيهما التعليم عن تنقل النفس حدّاً بعيداً. وفي بعض بلدان أفريقيا يحاول الناس معرفة هويّة مولود جديد بالكشف عن علائم عنده تشبه شخصاً معروفاً لديهم، كأن يمدّ الطفل يده ليمسك بغليون شخص قد توفّي من زمن قريب.



وجرت عادة في الإسكيمو أن يعطوا المولود اسم شخص توفي من زمن قريب، فيُدعى تحديد الاسم "قيامه الميت" ويكون ذلك إنهاءً لمدة الحداد.

## ٢. شعائر الانتقال

(١) شعائر الانتقال ضرورية لكي يحصل الميت على وضع الميت الذي لا يزال يتمتع بحياة أخرى. هذه الشعائر هي الجنائز ومراسيم الدفن، وطالما لم تُقم هذه الشعائر فالميت لا يزال في نظر بعض الشعوب عالماً في وضع مُبهم قد يؤدي به إلى حالة أسوأ في العالم الآخر.

(٢) ثم إن الموت يحصل معه ضعف في الجماعة ويؤلف خطراً عليها، من هنا جزء مراسيم الدفن وما يلي الدفن التي من شأنها أن توفر القدرة للجماعة، وذلك بتقديم الطعام الوفير والممارسات الجنسية التي نجد أمثالا لها عند بعض الشعوب البدائية.

(٣) هناك أحوال يكون فيها من صالح الجماعة أن لا تتم مراسيم الموت والدفن، وذلك دفعاً لأذى قد يتبع ذلك بسبب القوة المؤذية المتجمعة في الميت، فيكون من الأفضل ألا ينصب بواسطة شعائر الدفن في ملء قدرته كميت.

في بعض مناطق أندونيسيا لا يُدفن بعض الأموات بكامل المراسيم لئلا تعود القدرة المؤذية المتجمعة فيهم فتجلب الضرر على الأفراد والجماعة. وهم مثلاً من مات عن بعض الأمراض المعينة، ومن مات ميتة

مفجعة، كالطفل أو الفتاة العذراء أو المرأة النفساء، أو الأمراء أو الكهنة. فيُعدّ الأفضل لصالح الأحياء ألا يُدفنوا بكامل الشعائر، بل يظلّوا في حال الانتقال غير التام.

## الحياة في الآخرة

تتخذ الحياة في الآخرة أشكالاً مختلفة:

### ١. الحياة في الآخرة امتداد للحياة في الدنيا

(١) هذا يعني أنّ أنفس الأموات لها جسد خاصّ، ليس له كثافة الجسد الأرضي، بل هو أشبه بضباب وبخار.

(٢) بعض أوصاف الحياة الأخروية تدلّ على أنّ هذه الحياة أشبه ما تكون بالحياة الدنيوية: فالأموات يعيشون في بيوت، ويفلحون الحقول، ويقيمون مراسيم أعيادهم، ويتزوّجون. وقد نصادف أقوالاً توحي بأنّ تلك الحياة الأخروية مراحل غير ثابتة، فالأموات في كلّ مرحلة منها ينجبون الأولاد، ويهرمون ويموتون، ويبلغون إلى دار أموات أخرى. فكانّ الأموات في الآخرة لهم الحاجات والأمنيات عينها كأهل الأرض.

(٣) من هنا نتجت ضرورة الحفاظ على سلامة الجسد وتأمين ما يسدّ حاجات الجسد الأخرويّ من غذاء، فكان الأحياء يشيّعون الأموات ويزوّدونهم بالرزق الضروريّ.

- عند قبائل الزولو في أفريقيا يُعطى الميت في قبره ملابس وأغطية وحُصر، وعلبة مملوءة تبغاً، وبذور مختلف أصناف الثمار.
- ومثل ذلك يحصل في عوائد الدفن عند الإيفي في أفريقيا.
- وكان من مهمّات الأحياء في مصر القديمة أن يختاروا قبرهم ويعدّوه للدفن وأن يضمنوا قيام الأحياء بالخدمة اللازمة لهم بعد وفاتهم.
- وكانت الخدمة تقوم بتحنيط المومياء، وترتيب القبر ليصلح مسكناً للمتوفى، فتكون هناك الأدوات المنزليّة والملابس والحلي والمواد الغذائيّة، وذلك لا مرّة واحدة فقط بل مرّات منتظمة.
- ثمّ إنّ مراتب الطبقات الاجتماعيّة لا تزال قائمة في ديار الآخرة.

## ٢. الحياة في الآخرة أسوأ من الحياة في الدنيا

(١) يرى بعض الشعوب أنّ الأموات يهيمنون كالأطيفاف، وهم بحاجة إلى عون الأحياء ليجدوا الراحة ويحصلوا على ما يحتاجون إليه من مدد.

- يصف الزولو في أفريقيا الأموات بالنيام. وقبائل الإيفي تقول بأنّ الأموات تطبخ الطعام، ولكنّ هذا الطعام يتحوّل في أيديهم إلى رماد.
- يصف هوميروس الأموات بأنّهم أطيفاف في ديار الموت.

(٢) سوء حال الأموات يأتي وصفه بنوع خاص في نصوص مصر القديمة: الموت يجلب على الإنسان الوحشة والركود والفقر: إنّ مخرج



الحياة هو حزن وحاجة إلى كل شيء وانعدام الملك، والقعود في قاعة الركود، والجهل، والنوم، والعطش.

(٣) نصادف عند الشعوب التي تقول بالتقمص أن الولادة الجديدة في العالم تكون مرحلة أسوأ مما كانت عليه الحياة الأرضية السابقة، فقد يحصل أن تولد النفس في جسد حيوان أو في نبات، وأحياناً في مواد جامدة مثل الحجارة.

- كان يُقال في المكسيك القديم إن شيوخ القبائل يولدون كحجارة ثمينة أو كعصافير، وسائر البشر بهيئة حيوانات بشعة المنظر.

- في معتقد الزولو في أفريقيا أن شيوخ القبائل يعودون بعد موتهم بهيئة ثعابين سامّة، وباقي البشر بهيئة حيّات غير سامّة، والنساء بهيئة الحرادين.

- ويُعرف من تاريخ الأديان ما يُدعى "الحيوانات الحاملة الأرواح"، التي تحيا فيها بعد الممات نفوس العائدين. وهذه الحيوانات هي الفأر، والوطواط، والحمام، والبوم، والغراب، والحية، والخردون، والزيز، والفراش، وطيور مختلفة.

وتُذكر كذلك مثلاً في أفريقيا الحيوانات التي تفترس الجيف كالضبع والطيور الكاسرة، وهناك الأسماك والتمساح، ومختلف الطيور.

(٤) وإليك نصاً من بابل يصف دار الأموات، وهي مدينة محاطة بسبعة أسوار: البلد الذي لا عودة منه...

منزل الظلمة، حيث لا يلاقي الداخل فيه نوراً.

المكان الذي يكون فيه الغبار غذاؤهم، والخِرَاء طعامهم.  
هم لا يبصرون نوراً، وهم يسكنون في الظلمة.

٣. حياة الأموات في الآخرة أفضل من الحياة في الدنيا  
إنَّ فضل الآخرة على الحياة الدنيا يظهر في ازدياد قدرة الأموات  
وفي أحوال سعادتهم.

#### (١) قدرة الأموات

بعض الأديان ترى أنَّ الأموات لا يغادرون نهائياً الدنيا وعشيرتهم،  
بل يظلُّون في قربها ويكون بينهم وبين جماعاتهم تبادل متواصل، ألَبثوا  
مدَّة طويلة في جوارهم أم انتقلوا إلى عالم الأجداد القدامى.  
وتكون مراتب الأموات من أدناها إلى أعلاها كما يلي: من توفيَّ  
بلا نسل، أجداد الأسرة الأقربون، شيخ الضيعة، أبطال القبيلة، الملوك  
والسلاطين، أبطال القبيلة القدامى، ملوك الزمان الأول، مؤسِّس القبيلة،  
الإنسان الأوَّل.

في كثير من الأحيان تنسب إلى جميع الأموات قدرة خاصَّة، ولكن  
عادة تُردُّ قدرة الميت إلى منصبه الذي كان يشغله في حياته.

#### ١. قدرة الأموات المؤذية

- من توفيَّ بلا نسل أو مَن مات ميتة مفاجئة له قدرة مؤذية، يجب  
إبعادها.

- لمنع خطر هذه القدرة المؤذية تُقام شعائر خاصة: ففي أندونيسيا يتجنب الناس المكوث بقرب القبور، خوفاً من عودة الأموات من بلد الموت حاملين معهم قدرتهم المؤذية. وفي كامبوديا يصنعون زوارق صغيرة يملأونها أرزاً وحلوى وماشاكل، ويلقونها في النهر لكي يركب الأموات فيها ويبتعدوا عن القرية. وفي الهند واليونان كانوا يطردون الأموات إلى الخارج. وفي جرمانيا القديمة كان الأحياء يقدمون وليمة بعد دفن الميت. ثم يقوم الكاهن بتكنيس المنزل وطرد الأموات قائلاً: "لقد أكلتم وشربتم، أيها الأموات، فانطلقوا واذهبوا".

- أشدّ الأموات خطراً هي الأرواح المعذبة. تصف الروايات في أندونيسيا أرواح النساء اللواتي مُتن فوراً بعد الولادة: لهنّ ظهر مجوّف، ويربضن مثل الطيور على الأشجار، ويسببن إجهاض الحوامل، ويختطفن من الرجال قدرتهم الجنسيّة. وتعرف الأرواح المعذبة في تراث اليونان، التي تجرّ الأذى إلى الأحياء وتدفعهم إلى الموت، مثل الهربيات والسيرانات.

في مثل هذه الأحوال كلّها يؤدّي الوضع إلى نوع من تسلّط الموت على الحياة، فيعيش الأحياء في ظلّ الأموات.

## ٢- قدرة الأموات النافعة

- في كثير من الأحوال تكون قدرة الأموات ذات منفعة لنسلهم وأقربائهم. هذا يصحّ في أجداد القبيلة أو العشيرة. فترجى منهم حماية المنزل (اليونان)، أو الحصول على أولاد (الهند)، أو إنزال المطر



والخصب (نيوزيلاندا)، أو الحماية في أيام الحرب وعند الصيد في البحر أو القنص في البر (أندونيسيا).

- ويكون موقف الأحياء منهم موقف الإكرام بالقيام بخدمتهم وتوفير التقادم لهم وتمجيد الأجداد. هؤلاء الأجداد الذين يحقّ لهم الإكرام هم الأقدمون الذين امتازوا في حياتهم لصالح عشيرتهم. فتقوم القبيلة بمراسم خاصة تهدف إلى إقرار امتيازاتهم وإعلان واجب إكرامهم.

## (٢) وضع الأموات الأفضل

هؤلاء الأجداد الممتازون موضع الإكرام تصفهم الأديان بأنهم ينعمون في الآخرة بحياة أفضل من حياة الدنيا، حتى إن بعض القبائل رفعت أحياناً مرتبتهم إلى مرتبة الآلهة الذين تقدّم لهم الذبائح.

- يوصف مثل هؤلاء الأجداد بأنهم يتمتعون في الآخرة بأمور تشبه أطيب الأرض، مثل صيد السمك، وصيد الحيوانات، والطعام والشراب. فتكون آخرتهم صورةً مثاليةً عن أفضل نواحي الأرض. تقول الروايات في أندونيسيا "إن دار أرواح الأموات تشبه مرجاً جميلاً بجانب نهر. فليس هناك قحل في الحقول، والمياه مليئة بالأسماك، والغابات مليئة بالطرائد. كل شيء يشبه الحياة على الأرض ولكن بشكل أفضل، غير أن كل شيء منقلب على خلاف ما كان عليه في الدنيا، فما كان يميناً يصير شمالاً، وما كان فوق يكون تحت، وما كان أبيض يصير أسود،

وكلمات لغة الأموات يكون معناها خلاف ما كانت عليه في الأرض<sup>١</sup>.

- ليس في حياة الأموات الأفاضل قتل وسرقة، ولا عداوة، ولا جوع، ولا استياء من عداوة الآخرين وشرهم. ثم إن بلد هؤلاء الأجداد منزل يشربون فيه ويأكلون وينشدون الأغاني ويلعبون على المزمار (الهند)، أو هو بلد مليء بالزهور، فيه كل شيء بوفرة، لا يعرف المرض والموت، بل يتنقل فيه ساكنوه عراة يغنّون ويرقصون (أميركا الشمالية)، أو هو بلد أخضر خصب، يُزرع فيه ويُحصَد ويُمارس الصيد واللهو واللعب (مصر).

- ونجد مقولات بعيدة الانتشار تصف مقام الأموات بأنه جزيرة تحيط بها المياه (مصر، الكلتيون، اليونان، أندونيسيا، أميركا الشمالية)، أو توصف دار الأموات بأنها بلد يقطنه بشر رائعون، فيه أشجار مثمرة تفوق أشجار الأرض، وتصدح فيه الموسيقى، ويوجد فيه الطعام والشراب بوفرة، ينعم فيه قاطنوه بالخلود في شباب مستمر وحسن دائم.

<sup>١</sup> راجع:

Waldemar Stöhr – Piet Zoetmulder, Die Religionen Indonesiens, Stuttgart 1965, 188

## الفصل الخامس عشر

### الدينونة والمجازاة

ما جاء عرضه في الفصل السابق عن الحياة الأخروية لا يهتم بصفة الأموات الأخلاقية، بخير أفعالهم وشرّها. غير أنّ نجد لدى شعوب مختلفة، خصوصاً في الأديان المتطورة بعداً آخر لحياة الآخرة، يدور حول جزاء أفعال الإنسان في الدنيا، نظراً إلى إرادة الإنسان المائلة إلى الخير، وإلى قيمة أفعاله الأخلاقية وإلى علاقته بالله.

ثم إن كانت الآخرة ليست امتداداً للدنيا، بل مقراً للحياة المثلى أو إعادة لمثل هذه الحياة، فيجب أن تكون الآخرة المرحلة التي تُزاح فيها المتناقضات والمهاوي العالقة بأوضاع الدنيا. ومن أهم هذه المتناقضات أن تكون أحوال الصالحين سيئة وأحوال الأشرار مفلحة، أي أن لا تخضع قيمة المسلك الأخلاقي إلى المجازاة التي يستحقها.

فكان أن إحساس البشر بضرورة العدالة وتقديرهم للقيمة الأخلاقية التي تتسم بها الأفعال، أدّى إلى القول بأن حياة الآخرة ليست امتداداً مجرداً لحياة الناس على الأرض، بل هي بدء حياة جديدة تُصان فيها العدالة وتتخذ علاقة الإنسان بالله شكلها النهائي.

### دينونة الأموات

دينونة الأموات تقع على شكلين: دينونة الأفراد، والدينونة العامة في



آخر الزمان. وقد نصادف عند بعض الشعوب القول بأن الميت ينطلق أولاً في رحلة طويلة صعبة تؤدي به في آخر المطاف إلى دار الأموات. وهناك تصورات مختلفة عن الطريقة ومخاطرها، أكانت نهرًا على الميت أن يعبره، أو كانت بقعة يهيم فيها الميت بلا هداية. من هنا اهتمام المصريين القدماء بتزويد الميت بخريطة دار الأموات كي يطلع على أماكن هذه البقعة ويسهل عليه القيام برحلته آملاً بالنجاح. هذا كله يعني أن الميت عليه أن يجتاز في رحلته عوائق وأخطارًا مختلفة ويتغلب على امتحانات شتى.

أما الدينونة بالمعنى الحصري فتتخذ شكلين، هما الدينونة الشخصية والدينونة الذي يقيمها الديان.

### ١. الدينونة الشخصية

(١) لا تحتاج الدينونة الشخصية إلى قضاء من قبل ديّان إلهي، فالميت يقوم بنفسه بالقضاء على قيمة حياته وعواقبها.

فالميت وفقًا للبوذية يرى كفي مرآة أحوال نفسه. وفي أفستا، كتاب إيران القديم، يظهر للميت، في الليلة الثالثة بعد وفاته، ضميره الخاص، وذلك بشكل فتاة جميلة، إن كان صالحًا، أو بشكل عجوز شنيعة. فترد الفتاة على سؤاله: أنا، أيها الشاب المتمرس بالفكر الصالح والقول والضمير الصالح، أنا ضميرك الشخصي.

(٢) أو يكون هناك جسرٌ يمتد بين الدنيا والآخرة، فيعبر الأخيار عليه بلا عناء ويبلغون إلى دار السعادة. أما الأشرار فيهبطون إلى الهاوية. مثل

هذا التصور نعر عليه عند بعض قبائل الهنود في أميركا الشمالية، وبعض العشائر في إحدى جزر أندونيسيا.

- ومثله ورد في الإسلام في بعض الأحاديث عن أبي هريرة، عن النبي محمد قال: ثم يضرب الصراط بين ظهراي جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته. ولا يتكلم أحد يومئذ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم (البخاري).

- "ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم. وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ومكدوس في النار" (مسلم).

- "فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم ومخدوش ومكدوس في نار جهنم" (مسلم).

- وكذلك تصف النصوص المتأخرة في إيران القديم، في كتاب بُنداهشن، الفصل ٣٠، دينونة البشر: "١. هنالك رأس جسر يشبه السيف، علوه وطوله وحوله وعرضه تسعة رماح. وتقف عنده كائنات سماوية تطهر بنوع عقلي أرواح المبررين، وأيضا كلاب سماوية على رأس الجسر، والجحيم تحت هذا الجسر". ويدعى الجسر شُنفات. "٩. ثم إنه، إن بُررت النفس، انقلب رأس الجسر على عرضه، وبدد النار الظلام، فتعبر النفس بهيئة نار فوق رأس الجسر. فتلقاها الريح الصالحة وتقودها إلى موضعها المعد لها...".

"١٠. أما إن بلغت النفس المعادية للإيمان إلى ذلك الموضع من القمة



ومن رأس الجسر الحادّ، فتقف على رأس الجسر ولكنّ هذا لا يفتح مخرجاً للعبور. فتضطرّ إلى أن تخطو فوق رأس الجسر ثلاث خطوات إلى الأمام، إلى الأفكار الشريرة والأقوال الشريرة والأفعال الشريرة التي اقترفتها. فتقطع عنها طريقها، فتهدى على رأسها من أعلى نقطة من الجسر إلى الجحيم وتعاني هناك كل أصناف السوء<sup>١</sup>.

## ٢. دينونة الأموات

(١) تقول بعض الروايات في أفريقيا أن الأجداد يقومون بمهمة دينونة الأموات الذين يبلغون إلى مقرّهم. فيسألونهم هل اقترفوا ما يستحق العقاب كالسحر أو القتل. ثم يرسلونهم إلى مواضعهم الملائمة لأفعالهم. وهذه المواضع مفصولة بعضها عن بعض بحيث لا يمكن العبور من الواحد منها إلى الآخر.

(٢) نصوص مصر القديمة تصف كيف يستقبل أوزيريس، ربّ الدينونة، محاطاً باثنين وأربعين من القضاة الصارمين، الميت في قاعة القضاء.

فيبدأ الميت بإلقاء السلام على أوزيريس وبتعداد الآثام التي لم يرتكبها في حياته. أمّا صلب القضاء فيكون بوضع قلب الميت على الميزان، وهو ميزان لا غش فيه، فتحكم الآلهة وفقاً لنتائجه.

<sup>١</sup> راجع:

Geo Widengren, Iranische Geisteswelt, Baden-Baden 1953, 177-179



(٣) تأتي دينونة الأموات في الإسلام على مرحلتين: سؤال القبر، ويوم الحشر.

- يروي الحديث أن الميت تُطرح عليه في القبر الأسئلة التالية: مَنْ إلهك؟ مَنْ نبيك؟ ما دينك؟ ما قبلة صلاتك؟ فيجيب المخلصون الإجابة الصحيحة: الله، محمد، الإسلام، مكة. حينئذٍ يتلقون تأكيداً لما وعدوا به من نعيم الجنة. أمّا الهالكون فلا يدرون ما الجواب أو تكون أجوبتهم نحاطة، فيضربون "على وجوههم وأدبارهم" (قرآن ٤٧ : ٢٧ ؛ ٨ : ٥٠)، إشارة إلى عذابهم في جهنم.

أمّا عند الحشر، في يوم الدين النهائي فتكون أداة الحكم على الأموات الكتب التي دوّنت فيها أفعالهم، يتناول منها الصالح كتابه يمينه، والشرير بشماله (قرآن ٦٩ : ١٩ و ٢٥). ثمّ إنّ هناك موازين سماوية تتيح مقارنة عادلة بين الأفعال الصالحة والأفعال السيئة (قرآن ١٠١ : ٦ - ٩).

ويكون إيمان الميت بالله وبالإسلام معيار الحكم الذي يقضي به الله عليه يوم الدينونة.

### الجزاء

هناك أديان (الهند، واليونان، والسلافيون، والكلتيون) تؤمن بالتقمص وبعودة النفس بعد الموت إلى جسد جديد. فيكون جزاء أفعالها موقتاً ومتعلقاً بما فعلته في الحياة التي مضت. وهناك أديان تقول بأن الموت انتقال نهائي من الدنيا إلى الآخرة.

## ١. عودة الأنفس إلى حياة الأرض

تقول النصوص الهندية إنَّ عودة النفس إلى حياة الأرض تحصل بشكل إله أو إنسان (بجميع فئاته الاجتماعية)، أو حيوان أكان هذا دودة أم ذبابة، أم سمكة، أم طيراً، أم أسداً، أم خنزيراً، أم حيواناً مفترساً أم ثمراً. وقد جاءت نصوص متأخرة بتوضيح إضافي بالنسبة إلى أنواع العقاب على المساوي: من سرق حجارة ثمينة يرجع بصورة ذئب، ومن سرق فرساً يرجع بصورة ثمر. ومن قتل براهماً (من كهنة الهندوسية) يرجع بعد عذاب طويل في جهنم بصورة كلب أو خنزير. ومن زنى بامرأة براهمن يرجع بصورة عشب أو حشرة زحافة.

## ٢. الآخرة النهائية

(١) مقام من تساوت حسناتهم وسيئاتهم  
تصف نصوص إيرانية قديمة مكاناً تتساوى فيه درجات الأموات، عندما تتعادل أفعالهم، ويكون لهم مقاماً لا ثواب فيه ولا عقاب، عندما تتساوى حسناتهم وسيئاتهم.  
ونجد في القرآن عند المسلمين وصفاً لموضع يُدعى الأعراف، يشبه ما جاء في النصوص الإيرانية القديمة. يقول القرآن إنَّ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاً، "وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم. ونادوا أصحاب الجنة أن سلاماً عليكم. لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين" (سورة الأعراف ٧: ٤٦-٤٧).



أما علماء المسلمين فيقولون: إنَّ هذا المكان هو مقرّ موقّت، ريثما ينظر الله إلى إيمان أصحاب الأعراف ويدخلهم الجنة.

## (٢) جهنّم

جهنّم مكان العقاب الذي يحكم الله به على الهالكين بسبب شرورهم. وتتصوّر الشعوب عذاب جهنّم وفقاً لما تختبره من أنواع العذاب على الأرض.

- جهنّم الإسكيمو دار الجليد والثلج، لا ضياء فيه، بل قهَبٌ فيه العواصف. - وفي جهنّم الترتّر تضطرّ النفس الشريرة إلى مضغ أشياء لا تستطيع ابتلاعها، والخصم الشرير يلقي في الزفت الغالي. والنساء الزواني يُجبرن على معانقة الأشواك. - وقد جاء في نصوص الأديان وصفٌ متنوّع لألوان العذاب في جهنّم من الغرق إلى العطش، وإلى التعرّض إلى الاتهام من قبل تيّن، أو الحريق في النار، أو التفجّر على صخرة. - أو يسحب الشياطين بحبل ألسنة النّمامين، أو يعانق الرجال الذين زنوا نساء من لهيب نار، أو يمشون حفاة على حدّ سيف. البخلاء يعانون من الجوع حيث يشاهدون الطعام والشراب يتحوّل عند شفاههم إلى نار.

- يَصوّر القرآن في الإسلام عذاب الهالكين بشكل مريع. الجحيم لا سلام فيه، والهالكون يتخاصمون ويراشقون التّهم (٣٨: ٥٥-٦٤)، "إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون في الحميم ثم في النار يُسجرون" (٤٠: ٧١-٧٢). ويضربون ويكتوون بالنار، لا يموتون فيها ولا يحيون (٢٠: ٧٤). "كلّما نضجت جلودهم بدلّناها جلوداً غيرها



ليذوقوا العذاب" (٤ : ٥٦). ثُمَّ إِنَّ الْهَالِكِينَ يَقِيمُونَ أَبَدَ الدَّهْرِ فِي الْجَحِيمِ (٤٣ : ٧٤-٧٧ ؛ ١١ : ١٠٦-١٠٧ ؛ ٣ : ٢٤).

### ٣) الجنة والسما

السما هو مكان النور والسعادة. جاء وصفه في نصوص الشعوب بألوان زاهية.

- هو عند الإيرانيين القدماء المقر الذي فيه يتألق المخلصون بالنور، ويضيئون كالكواكب. عروشهم وكراسيهم منيرة وعالية ومليئة بضياء السعادة، يجلسون على عروش موشاة بالذهب، ويلبسون حُللاً فخمة. ضياؤهم يضاهي نور الشمس.

- وفي نصوص جماعة الشين البوذية اليابانية، يرتدي السعداء في فردوس بوذا أميذا ملابس فخمة، ويعاينون رؤى شقيقة، ويسمعون خطباً رائعة، ويتنسّمون رائحة بخور النعمة الإلهية، ويتذوّقون بألسنتهم الفرح الإلهي، ويغسلون أرواحهم في السعادة، ويتنعمون بنسيم الرياح التي تمر فوق أشجار الجواهر، ويصغون إلى أنغام تصدح من أغصانها وأوراقها وثمارها، كما يستمعون إلى أناشيد الغرائق والإوز<sup>٢</sup>.

- يصف القرآن في الإسلام مُتَعِ الجنة التي ينعم بها المؤمنون والمخلصون خالدين (١١ : ١٠٨) ببعض صور تعكس سعادة الدنيا.

<sup>٢</sup> - راجع:

Friedrich Heiler, Erscheinungsformen und Wesen der Religion, Stuttgart,

<sup>٢</sup> 1979, 529.

فهنا لك جنّات تجري من تحتها الأنهار، انهار الماء واللبن والخمر والعسل (١٤ : ٢٣ ؛ ٤٧ : ١٥)، وفاكهة وافرة وملذّات جسدية (٣٦ : ٥٥ - ٥٧)، والتمتّع الجنسيّ بحُور عين (٥٢ : ٢٠ ؛ ٥٦ : ٢٢ و ٣٥ - ٣٧). وهنالك أيضًا الأمن والسلام (١٥ : ٤٥ - ٥٠). والمؤمنات أيضًا لهنّ الجنة وما فيها من مُتّع (٣٦ : ٥٦ ؛ ١٣ : ٢٣).

ويجد القارئ مزيدًا من التفاصيل عن الجنة ونعيمها في السور التالية: ٥٢ : ١٧ - ٢٤ ؛ ٥٥ : ٤٦ - ٧٨ ؛ ٥٦ : ١٠ - ٤٠ ؛ ٧٦ : ٥ - ٢٢. ونورد منها هنا نصّ السورة ٥٦ : ١٠ - ٤٠ :

"والسابقون السابقون، أولئك المقربون في جنّات النعيم. ثلّة من الأولين وقليل من الآخرين. على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين. يطوفُ عليهم ولدان مخلّدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدّعون عنها ولا يُنزفون. وفاكهة ممّا يتخيرون، ولحم طير ممّا يشتهون. وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيماً، إلّا قِيلاً سلامًا سلامًا. وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظلّ ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبقارًا عُرْبًا أترابًا، لأصحاب اليمين. ثلّة من الأولين، وثلّة من الآخرين".

(٤) السعادة السماوية عند الله

١ - في بعض نصوص الهندوسية تحصل الروح على معرفة وحدتها الكيانية مع الألوهة غير المتناهية، فتضيع فيه، وتنعم بحالة سلام غير متناه

وغبطة غير متناهية، غبطة تغيب عن وعي الإنسان، إذ إنَّه بعد الموت لا يبقى هناك في هذا الحال وعي.

مثل ذلك نجده في نصوص البوذية بالنسبة إلى ضياع الذات في النرفانا.

٢- أمَّا حيث يكون الإله شخصاً لا كياناً مطلقاً فحسب، تكون السعادة القصوى أن يحيا الإنسان في حضرة هذا الإله.

- هذا ما تتصوره نصوص طريقة البهاكتي الهندوسية ونصوص بوذية "المركبة الكبرى".

٣- القرآن يؤكد أن المؤمنين سيختبرون رضا الله (٦: ٧٢)، ويحفظون بسلامه (٣٦: ٥٨). وقبل كل شيء سينظرون إليه: "وجوه يؤمئذٍ ناضرة، إلى ربها ناظرة" (٧٥: ٢٢-٢٣). ويرى علماء المذهب السني الأشعري أن رؤية الله هي أعظم ما في السماء من غبطة (٩: ٧٢)، وهي ما يصفه القرآن "بالحسن وزيادة" (١٠: ٢٦). ثم إنَّ النبي محمد أكد للمسلمين: إنَّكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته (سنن الترمذي، صفة الجنة ١٦). لكنَّ هذه الرؤية هي من أمر الله ووقف على قراره، يؤتيها من يشاء من عباده.



٤ - في المسيحية يتركز نعيم السماء على رؤية الله والحياة مع المسيح وفي سلامه. جاء حول ذلك في "التعليم المسيحي" للكنيسة الكاثوليكية<sup>٣</sup> ما يلي:

١٠٢٣ - الذين يموتون في نعمة الله وصداقته، وقد تطهروا كلياً، يحيون على الدوام مع المسيح. إنهم سيكونون على الدوام أمثاله، لأنهم سيعاينونه "كما هو" (١ يوحنا ٣: ٢) "وجهًا إلى وجه" (١ كورنثس ١٣-١٤).

١٠٢٤ - تلك الحياة الكاملة مع الثالوث القدوس، تلك الشركة في الحياة والمحبة معه، ومع مريم العذراء والملائكة والطوباويين تدعى "السماء". السماء هي غاية الإنسان القصوى وتحقيق أعمق رغباته، وحالة السعادة الفائقة والنهائية.

١٠٢٦ - إن يسوع المسيح، بموته وقيامته، قد "فتح" لنا السماء. حياة الطوباويين تقوم في الامتلاك الكامل لثمار القداء الذي حققه المسيح، الذي يُشرك في تمجيده السماوي كل من آمن به وبقي أميناً لمشيئته. السماء هي الجماعة السعيدة المكوّنة من جميع الذين انضموا إليه انضماماً كاملاً.

١٠٢٧ - إن سرّ الشركة السعيدة هذا مع الله ومع جميع الذين هم للمسيح يفوق كل فهم وكل تصوّر. والكتاب المقدس يكلّمنا عليه في صور: الحياة، النور، وليمة العرس، خمر الملكوت، بيت الآب، أورشليم

<sup>٣</sup> المكتبة البولسية، جونية - لبنان، ١٩٩٩، ص ٣١٥-٣١٧.

السمّاويّة، الفردوس: "إنّ ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يحبّونه" (١ كورنثس ٢: ٩).  
 ١٠٢٨ - الله بسبب سموّه، لا تمكن رؤيته كما هو إلّا متى كشف هو نفسه سرّه لمشاهدة الإنسان المباشرة ومكّنه منها. هذه المشاهدة لله في مجده السّماويّ تدعوها الكنيسة "الرؤية الطوباويّة".

## ملاحظات ختامية<sup>١</sup>

إله الخلاص هو في آن واحد بعيدٌ وقريب، متسامٍ عن الكون وحاضرٌ فيه، هو قاعدة لسلوك الإنسان وضمانة حقيقية لرجائه. ولا يستطيع الإنسان أن يتخلّى عن هذا الإله، كما لا يستطيع هو نفسه أن يبدّله.

هذا الإله ليس ملاذّ تعزية للفارين من العالم، الذين يتعزّون بالدهر الآتي من يأسهم أو حتّى من إهمالهم. إنّهُ ليس التعزية التي يُحوّل بواسطتها نظراً المقهورين عن مصيرهم. إنّهُ في تساميه بالتحديد النقد المطلق للإنسان، كفرد وكجماعة (بمعنى المثال والقاعدة). ولكنّه أيضاً، كحقيقة موجودة وفعّالة، أساسُ الرجاء الإنسانيّ. فهو يمنحنا الشجاعة لنبدأ دوماً من جديد ونسير إليه.

فالتشديد الذي كثيراً ما نشاهده اليوم على أنّ الله يجب عدم البحث عنه في تساميه، بل في عمله في الناس، في تاريخ البشريّة، يُعيد إلى الواجهة ناحية عمل الله الحاضر في الكون. وبهذا يتمّ إبراز بُعد النقد الاجتماعيّ الذي تنطوي عليه الخبرة الدينيّة.

يذهب البعض إلى التأكيد أنّ تسامي الله هو من بقايا لاهوت عقاه الزمن. هنا يذوب الله من جديد في الجانب المقدّس الذي تتضمّنه الحياة الإنسانيّة مبثوثاً في مختلف نواحيها. هذا الموقف الذي يتركّز على

<sup>١</sup> أنقل هنا ما كتبه في الكتاب: "من هو الله؟ جواب الديان الكبرى (في علوم الأديان ٣)، المكتبة البولسيّة، جونية - لبنان ٢٠٠٣، ص ٢٤-٢٥.



الحضور الإلهي في الكون يمكن بالتالي أن يؤدي إلى إزالة فعالية النقد المطلق للفرد وللمجتمع. فإذا كان الله مجرد جانب من المجتمع الإنساني أو من تاريخ البشرية، يصعب على مرّ الأيام أن نجتنب أن يصير الإنسان هو الذي في نهاية الأمر يحدّد، في مختلف أوضاعه الواقعية، معيار تحقيقه لذاته. حينئذٍ لا يعود هناك أي مرجع تمكن العودة إليه لتصحيح مسيرة الإنسان الذي يُترك هكذا لنفسه بشكل تام، ويُفسح له في المجال لشتى المساومات.

ما يعنيه الله وخبرة الله بالنسبة إلى الإنسان، لا يمكن أن نعالجه معالجة مستفيضة. بل نقتصر في الختام على بعض النواحي. إنَّ إله البشر، كما يعيشه الإنسان في الخبرة الدينية، هو في الوقت عينه إله الأنبياء وإله الحكماء:

- إنَّه الإله الذي يتطلّب التغييرات،
- ولكنّه أيضاً الإله الذي يدعو إلى النظام.
- إنَّه إله أوقات الأزمات،
- ولكنّه أيضاً إله الانسجام.
- إنَّه إله الوعي الناقد،
- ولكنّه أيضاً إله التوطيد والبناء الإيجابي.
- إنَّه إله الغيرة الفاعلة،
- ولكنّه أيضاً إله الحكمة المستنيرة.
- إنَّه إله الرجاء، الذي يدفع إلى العمل،

ولكنّه أيضاً وبنوع خاص إله المحبة، التي تعرف أيضاً أن  
تصبر.

- الله هو، بالنسبة إلى الإنسان، النفي المطلق (بمعنى النقد المصحح  
والمطلق)،

ولكنّه أيضاً وبنوع خاص الإيجابية المطلقة، بمعنى الملء المطلق  
والصلاح الكامل.

## المراجع

*K. Breysig*, Die Entstehung des Gottesgedankens und der Heilsbringer, Berlin 1905.

*J. Wach*, Der Erlösungsgedanke und seine Bedeutung, Leipzig 1922.

*A. Jeremias*, Die außerbiblische Erlösungserwartung. Zeugnisse aller Jahrhunderte, Leipzig 1927.

*W. Staerk*, Soter I, Gütersloh 1933; – Soter II, Stuttgart 1938.

*Fr. Taeschner* (Hrsg.), Orientalische Stimmen zum Erlösungsgedanken, Leipzig 1936.

*A. van Deursen*, Der Heilbringer, Groningen 1936.

*Ch. S. Bradon*, Man's Quest for Salvation, Chicago 1941.

*H. Schär*, Erlösungsvorstellungen und ihre psychologischen Aspekte, Zürich 1950.

*I. W. Parker*, The Idea of Salvation in the World's Religions, London 1955.

*B. Welte*, Heilsverständnis. Philosophische Untersuchung einiger Voraussetzungen zum Verständnis des Christentums, Freiburg 1966.

*W. Molinski*, Die vielen Wege zum Heil, München 1969.

*D. Wiederkehr*, Glaube an Erlösung, Freiburg 1976



## محتويات الكتاب

	الفصل الأول
٥	اختبار الله والتماس الخلاص
	الفصل الثاني
٢٤	السلامة القديمة: زمن الفردوس
	الفصل الثالث
٣٩	العالم المُهدّد
	الفصل الرابع
٤٩	الفردوس الضائع
	الفصل الخامس
٦٧	تجديد العالم
	الفصل السادس
٧٨	استعادة زمن الفردوس
	الفصل السابع
٩٤	الاستعادة المعاديّة لزمن الفردوس
	الفصل الثامن
١٠٣	الموت والخلود
	الفصل التاسع
١١٩	الحفاظ على الحياة وتحسين أحوالها

	الفصل العاشر
١٣١	التَّناوُل وتَفَتُّح الحَيَاة
	الفصل الحادي عشر
١٤٦	النَّجَاسَة وشَعَائِر الطَّهَارَة
	الفصل الثاني عشر
١٦٣	المَسْئَلَة الأخلاقِيَّة بين الخَيْر والشرِّ
	الفصل الثالث عشر
١٨٢	بُعْد اللّٰه وقُرْبُ اللّٰه
	الفصل الرابع عشر
١٩٦	من الدُّنْيَا إلى الآخِرَة: الموت
	الفصل الخامس عشر
٢٠٥	الدِّينُونَة والمُحَازَاة
٢١٧	ملاحظات ختاميّة
٢٢٠	المراجع
٢٢١	محتويات الكتاب

## فهي علوم الأديان

سلسلة يُشرف عليها  
عادل تيودور خوري  
والمطران كيرلس سليم بسترس

ظهر من هذه السلسلة

١. عادل تيودور خوري، مدخل إلى علوم الأديان، ٢٠٠٣، ٨٤ ص.
٢. عادل تيودور خوري وبيتر هونرمان، ما هو الخلاص؟ جواب الأديان الكبرى، ٢٠٠٤، ١٨٩ ص.
٣. عادل تيودور خوري وبيتر هونرمان، من هو الله؟ جواب الأديان الكبرى، ٢٠٠٣، ١٤١ ص.
٤. عادل تيودور خوري وبيتر هونرمان، من قريب؟ جواب الأديان الكبرى، ٢٠٠٤، ٢٠٤ ص.
٥. عادل تيودور خوري، الظاهرة الدينية، ١: نشأة الخلق، ٢٠٠٤، ٢٤٤ ص.
٦. عادل تيودور خوري، مدخل إلى الأديان الخمسة الكبرى، ٢٠٠٥، ١٧٦ ص.
٧. فولفغانغ بينارت، المسيحية، ٢٠٠٦، ٢٣٢ ص.
٨. عادل تيودور خوري، الظاهرة الدينية، ٢: اختبار الله في الخلائق، ٢٠٠٦، ٢١٨ ص.



٩. روايات حول نشوء البشر من زائير (أفريقيا)، نقلها إلى العربيّة جان خوري، ٢٠٠٧، ٧٢ ص.
١٠. عادل تيودور خوري، الظاهرة الدينيّة، ٣: الأنبياء والكتب المقدّسة، ٢٠٠٨، ٢٢٢ ص.
١١. عادل تيودور خوري، الظاهرة الدينيّة، ٤: الخلاص: مفهومه وسبله، ٢٠٠٩، ٢٢٤ ص.

أنجزت المطبعة البولسيّة  
جونيّه - لبنان  
طبع هذا الكتاب  
في شهر حزيران سنة ٢٠٠٩

